
طه حسين
الحبّ الضائع
دار المعارف
Bibliotheca Alexandrina
0139881

الحبّ الضائع




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طه حسين

الحبّ الضائع

الطبعة الخامسة عشرة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الحب الضائع

١

ما أكثر ما أعجب من نفسى ، وما أسرع ما يستحيل هذا العجب إلى سخرية منها أول الأمر ، ثم إلى رثاء لها وعطف عليها . لا يعرض لى شىء غريب أو مألوف إلا حاولت أن أتبين أصله وأرده إلى علته . وقد أبلغ من ذلك ما أريد فأرضى ، وهذا نادر ، وقد أعجز عن التعليل والتأويل فأسخط ، وهذا كثير . وأنا على كل حال ساخرة من نفسى لهذا المرض الذى لا أجد منه برءاً ، مرض التماس العلة والانتهاء إلى المصادر والأسباب .

والناس يقولون ، إننا ، نحن الفرنسيين ، أمة مريضة بالتعليل والتحليل ، وإن فيلسوفنا ديكارت قد أفسد علينا عقولنا لكثرة ما ألح علينا فى أن نحلل ونعلل ، ولشدة ما فتنّا بتحليله وتعليله حتى أصبحنا جميعاً فلاسفة أو كالفلاسفة ، وحتى اتخذ العالم منا والجاهل ، والمثقف منا والساذج ، طور الفيلسوف الذى لا يرضى ولا يطمئن إلا إذا رد كل شىء إلى أصله ، ووجد له تفسيراً أو تأويلاً .

وأكبر الظن أن هذا حق ، فإننا نحن الفرنسيين حين تعرض لنا المشكلات أو تلم بنا الأحداث لا نعنى بحل المشكلات ولا بالتخلص من الأحداث ، وإنما نعنى قبل كل شىء بتفسيرها وتأويلها ، فإذا

وصلنا من ذلك إلى ما نريد رضينا واطمأنت قلوبنا وأذعنّا للقضاء ، وقد يشغلنا هذا عن التماس المخرج مما يلم بنا من الخطوب أو يعرض لنا من الأزمات .

أنا إذن فرنسية من هؤلاء الفرنسيين ، لم أبرأ من هذا المرض الفرنسى العام ، مرضَ التأويل والتعليل ، وأنا جادة الآن فى البحث عن أصل هذا الخاطر الغريب الذى أجلسنى إلى هذه المائدة ومد يدى إلى هذا القلم ، ثم أخذ يجريها على القرطاس بهذا الكلام الذى أكتبه .

ذلك أنى لم أكتب قط إلا ما تعوَّد أمثالى أن يكتبن من هذه الكتب اليسيرة القصيرة ، التى تتصل بين الصديقات حين يفترقن ويحرصن على أن تتصل بينهن المودة وتتصل بينهن المجاملة بنوع خاص ، وتتصل بينهن بنوع أخصّ هذه الثرثرة التى لا يستطعن أن يتخلصن منها أو يعرضن عنها .

لم أكتب قط إلا هذه الكتب القصار إلى الصديقات حيناً ، وإلى أبوىّ وإخوتى حين كنت بعيدة عن الأسرة ، رهينة لذلك السجن الذى اضطررت إليه ثمانية أعوام والذى نسميه المدرسة . وأنا الآن جالسة إلى هذه المائدة ، مجرية قلمى على هذا القرطاس ، لا لأكتب كتاباً إلى صديقة ، ولا لأكتب كتاباً إلى أحد من أسرتى ، فإنى لا أفكر فى أحد غير نفسى ولا أحب أن يقرأ أحد

شيئًا مما أكتبه الآن ومما سأكتبه فيما سيتصل من أيام . فإنى لم أجلس للكتابة إلا وأنا مقدرة أنها ستتصل . وأنا أبحث عن هذا الخاطر الغريب الذى دفعنى إلى هذا النحو من التفكير والكتابة فلا أكاد أهتدى إليه .

أنا أذكر أن ثلاثًا من أترابى قد زرننى منذ أيام فخضنا فى أحاديث مختلفة ، وذكرت كل واحدة منهن كثيرًا من شؤونها الظاهرة والمستورة ، وتحدثت كل واحدة منهن بما تُسر بين حين وحين إلى دفترها حين تخلو إلى نفسها وتأوى إلى غرفتها بعد أن يتقدم الليل . وأذكر أنى سمعت أحاديثهن فعجبت لها وأعجبت بها . ولم أستطع أن أشارك فيها لأنى لا أسرّ إلى دفترى شيئًا إذا آويت إلى غرفتى بعد أن يتقدم الليل ، بل لأنى لم أتخذ قط لنفسى دفترًا أسرّ إليه أحاديث نفسى ، وآمنه عليها ، وأستعين به على ما قد يضيق به صدرى من الخواطر والهموم ، أو على ما تفيض به نفسى أحيانًا من ألوان الغبطة والابتهاج . بل لم أفكر قط فى شىء كهذا ، وإنما آمنت دائمًا بأن سر النفس يفقد حرمته وطبيعته إذا تجاوز التفكير إلى طرف اللسان أو إلى طرف القلم . وأبيت دائمًا أن أشرك فى أحاديث نفسى أحدًا غيرى ، ويجب أن أعترف بأن أحاديث نفسى لم تكن ذات خطر ، وبأنها لم نبلغ قط من القوة أن تشعرنى بالحاجة إلى من يشاركنى فيها أو يعيننى عليها ، ولكن سمعت أحاديث الصديقات ، ولا أدرى

لماذا أعجبتنى أنباء هذه الدفاتر التى تؤتمن على الأسرار وتتلقى الأحاديث حين تأوى كل واحدة منهن إلى غرفتها بعد أن يتقدم الليل .

وقد تفرق عنى صديقاتى وشغلت عنهن وعن أحاديثهن بما يكون من حياة الأسرة ، حتى إذا تقدم الليل وآويت إلى غرفتى وخلوت فيها إلى نفسى لم أجد ميلاً إلى النوم ، وإنما أطلت الاضطراب فى الغرفة والتشاغل بالترتيب والتنسيق كأنى كنت أريد أن أمد الأسباب التى تصل بينى وبين النوم ، وأن أطيل السهر وأحتفظ باليقظة ، فلما لم يبق ترتيب ولا تنسيق ، ولم تنازعنى نفسى إلى النوم ، أردت أن أتشاغل بالقراءة ، وأستعين بها على ما أريد من سهر ، فآخذ هذا الكتاب ولكنى لا أكاد أنظر فيه حتى أصرف عنه فآخذ كتاباً آخر فلا يكون حظه خيراً من حظ الكتاب الأول ، فألبث جامدة شاردة النفس حيناً ثم تثوب إلى نفسى ، وإذا أنا راغبة عن النوم زاهدة فى القراءة ، منصرفة عن الحركة فى التنسيق والترتيب .

وماذا أنسق ؟ وماذا أرتب ؟ وقد بلغت من ذلك ما أريد وأكثر مما أريد ، حين آويت إلى هذه الغرفة منذ ساعة . وهنا أشعر بالحاجة إلى أن أكتب ، ولكن ماذا أكتب ؟ ولمن أكتب ؟

هنا يعاودنى ذلك الخاطر الذى عرض لى حين كنت أستمع إلى حديث الصديقات ، فأذكر ائتمان الدفاتر على الأسرار والتحدث إليها بنجوى الضمير . ثم أذكر أنى لا أملك دفتراً أأتمنه على أسرارى ،

وأفضى إليه بأحاديث نفسى وليس من شك فى أنى قادرة على أن أمد يدى فآخذ ما أشاء من الورق وألقى إليه بما أحب من حديث . ولكنى أنفر من ذلك نفوراً شديداً فلا بد من أن أختار الدفتر الذى أتحدث إليه ، كما أختار الصديق التى أوثرها بالمودة والإخاء ، ولا بد من أن تكون هنالك ملاءمة بين نفسى وبين هذا الدفتر . وإذا أنا أفكر فى شكل هذا الدفتر ، وما ينبغى أن يكون عليه من الجودة والظرف ومن الشكل الأنيق المعجب ، ثم يجب أن يكون خليقاً بكتمان السر والضن به على الذين قد يتطفلون أو يتطلعون إلى القراءة واستباحة ما اؤتمن عليه .

وإذن فلن أكتب الليلة ولن أفضى بسرى إلى دفتر من هذه الدفاتر العادية أو ورقة من هذه الأوراق المنثورة ، ولا بد من أن أنتظر إلى غد حتى إذا اخترت الدفتر ، وأحسنت اختياره خلوت إليه خلوة الصديق إلى الصديق الذى يلائمه ويشاكله ، فتحدثت إليه أحاديث فيها الثقة والأمن ، وفيها اللذة والمتاع ، وفيها قبل كل شىء ارتفاع الكلفة وزوال الحرج .

ولو أنى أخذت دفتراً من تلك الدفاتر العادية أو ورقة من تلك الأوراق المنثورة ، ثم حاولت أن ألقى إليها سراً أو أفضى إليها بحديث لما وجدت فى نفسى شيئاً . فقد كنت أمس خالية النفس من كل سر وكل حديث ، لا يشغلنى إلا التفكير فى أن يكون لى دفتر كغيرى

من صديقاتى ، وفى أن ألقى إلى هذا الدفتر أسرارًا كالتى يلقينها ، وأفضى إليه بأحاديث كالتى يفضين بها . وليس أدل على ذلك من أنى قد أصبحت فغدوت على دار من تلك الدور التى تهيء للناس أنفس ما يحتاجون إليه من أدوات الكتابة والتحرير ، فلم أتخير دفترًا فحسب ، ولكنى تخيرت معه قلمًا رشيقًا جميلاً غالى الثمن أيضًا ، ثم أخفيت ذلك فى غرفتى ، ثم جعلت أفكر فى ذلك اليوم كله ، ثم جعلت كلما ألممت بغرفتى نظرت إلى القلم ومسست الدفتر بيدى مسًّا رفيقًا ، كأنما أريد أن ألاطفه وأبارك عليه ، ثم انقضى النهار وتقدم الليل ، وجعلت آخذ نفسى بشىء من العنف حتى لا أتعجل الخلوة إلى نفسى والإيواء إلى غرفتى .

ثم هأنا هذه قد آويت إلى غرفتى ، وخلوت إلى نفسى ، وأخذت الدفتر الجميل فبسطته أمامى ، وجعلت أنظر فى صحفه النقية فأطيل النظر ، كأنما أريد أن استبىء نقاءها وصفاءها عما يمكن أن يكون لهما من سر أو حديث . وأى عجب فى ذلك ؟ فقد اتخذت هذا الدفتر صديقًا أمينًا ، ولا بد بين الصديقين من تبادل الود والحديث والثقة والأسرار ، ولكن هذه الصحف النقية الصافية لم تنبئنى بشىء ولم تلق إلى نفسى شيئًا .

وإذا أنا آخذ القلم عازمة حازمة كأنما أريد أن أحطم ما بيننا من الثلج كما نقول فى أحاديثنا اليومية ، وأن أبدأ بالحديث تشجيعًا لهذه

الصحف على أن تتحدث ، ولكنى لا أجد شيئاً أقوله ولا حديثاً أكتبه ، وأكبر الظن أن نقاء هذه الصحف الخالية من كل سر لا يعدله إلا نقاء هذه النفس التى تريد أن تتحدث إليها والتى لا تجد ما تتحدث به فهى تتكلف وتتصنع وتخلق الحديث خلقاً .

وإنى لأفكر فى هذا فأذكر مواقف وقفتها فى عهد الطفولة ، وما زلت أقفها إلى الآن ، وقد كدت أبلغ العشرين من العمر ، وهى مواقفى من القسيس . فما أكثر ما أضعت وقته وأضعت وقتى بما كنت أحاول من الاعتراف ، فقد كنت أرى ذلك فرضاً على وأرى أن نفسى لن تستريح ، وأن ضميرى لن يطمئن إلا إذا قمت من القسيس مقام المعترفة بالخطيئة ، ثم مقام النادمة على الخطيئة ، ثم انصرفت عنه وقد ظفرت منه بالمغفرة . ثم أبحث فى سيرتى فلا أنكر شيئاً ، وأبحث فى دخيلة نفسى فلا أنكر شيئاً ، وألتمس مع ذلك شيئاً أنكره لأعترف به أمام القسيس فلا أجد ما أنكر ، فأخترع الخطايا اختراعاً وألقيها إلى القسيس متكلفة غالية فى التكلف . فيقبل القسيس منى حيناً ويرفض حيناً آخر ، حتى انتهى به الأمر ذات يوم إلى أن كلفنى أن أعترف له بكل ما أثقلت به نفسى من هذه الأكاذيب والأباطيل ، ونبهنى إلى أن الكذب عليه كذب على الله ، وإلى أن هذه الخطيئة الساذجة فى ظاهر الأمر قد تستحيل إلى خطيئة مهلكة ، لأنها تعودنى الكذب وتغرينى بالتكلف ، وتدفعنى إلى النفاق ،

وتنشيء بيني وبين الآثام صلات قد تنتهي بي إلى الشر .

فأقلعت منذ ذلك اليوم عن انتحال الخطايا وتكلف الآثام للقسيس ، ولكنني ألاحظ الآن أني قد جلست إلى هذا الدفتر لأنتحل الأحاديث وأتكلف الأسرار وما في نفسي من حديث وما لضميري من سر . وما أدري أيهما خير ؟ أن تظل نفسي نقية كهذه الصحف النقية ، وأن أخلو إلى هذا الدفتر ساعة في كل يوم فأنظر في صحفه النقية الصافية لأرى فيها نفسي نقية صافية أم أن تزدحم نفسي بالأحاديث والأسرار فلا أخلو إلى هذه الصحف إلا ألقيت عليها من سواد نفسي ما يمحو صفاءها ، ويزيل نقاءها ، ويجعلها مرآة مظلمة لنفس مظلمة .

أما قبل أن أسمع حديث صديقاتي عن الدفاتر والأسرار فقد كنت أوثر الأولى ، وأما منذ سمعت أحاديثهن وكلفت بمثل ما كلفن به فإني لا أدري أي الأمرين أحب إليّ ؟ بل أنا أدري أيهما أحب إلي ، فهذه صحف من هذا الدفتر كانت نقية صافية منذ حين قد جرى عليها هذا القلم فصيرها إلى هذا السواد الذي لا يغني وجعلها مرآة سوداء لنفس يشوبها الاضطراب ، ويشيع فيها القلق ، فيخرجها عما ألفت من صفاء ونقاء .

٢

ويحك أيها الدفتر العزيز ! ! ويحى منك ! ! لقد شغلتنى يومى كله ، فلم أكد أفكر إلا فيك منذ أصبحت إلى أن أمسيت ، ولقد كانت تشغلنى عنك الحوادث الطارئة والأحاديث العارضة ، بينى وبين أسرتى أو بينى وبين بعض أترابى ، ولكنى لم أكن ألبث أن أعود إليك ، فأذكرك ثم أراك ، ثم أتمثلك مبسوطًا بين يدى ، ثم أسأل نفسى عما يمكن أن ألقى إليك من سر ، أو أفضى به إليك من حديث .

وما أكثر ما خطر لى من الخواطر ، وما أكثر ما عرض لى من المعانى ، وما أكثر ما ثار فى قلبى من العواطف ، وما أكثر ما استبان لنفسى من الرأى ، ولكنى ضقت بهذا كله آخر الأمر ، ورأيت أنك ستصبح لى شغلا شاغلا وعلة ملحة ، وأشفقت أن تفسد علىّ حياة صالحة جرت إلى الآن على خير ما تجرى عليه حياة أمثالى من الفتيات ، فأزمعت الإعراض عنك ، والتنكر لك ، والاشتغال بما كنت أشتغل به قبل أن أعرفك من عمل ورياضة فى النهار ، ومن حديث وقراءة فى الليل . ثم أخذت فى بعض ما كنت آخذ فيه : ولكنى رددت إليك ردًّا ، وأكرهت على التفكير فيك ، ثم التحدث إليك إكراهًا . وهأنا هذه أجلس إليك بعد أن هدأ كل شىء ، وثاب كل فرد من

أفراد الأسرة إلى غرفته ، فخلت الدار منا ونحن مع ذلك نملؤها ونعمرها ، ونشيع فيها حياة تسكن الآن لتنشط إذا أسفر الصبح .

هأنا هذه أجلس إليك بعد أن هدأ كل شيء ، ولعلى تعجلت هذا الهدوء فيما ظهر من أمرى ، وما أشك فى أنى تعجلته فيما كنت أخفى من حديث النفس ونجوى الضمير . وأنا كما كنت أحدثك أمس ألتمس تعليل هذا وتأويله ، فيروعنى ما ينتهى إليه بحثى من التعليل والتأويل ، فقد يخيل إلىّ أن قلبى فارغ يريد أن يمتلئ ، وأن نفسى ساكنة كسلة تريد أن تنشط وتعمل ، وأن ملكاتى كلها معطلة يؤذيها هذا التعطيل فهى تلتمس لنفسها منه مخرجاً ، ولا تجده إلا فى معرفة جديدة لصديق جديد .

وأنا أعلم أبواب النشاط أمامى مفتحة ، لو شئت ، فأنا أستطيع أن أشارك فى أعمال البيت ، وأنا أستطيع أن أشارك فى الرياضة ، وأنا أستطيع أن أقرأ وأن أزور وأستزير ، وآخذ فى ألوان مختلفة من الحديث ، ولكنى منصرفة عن هذا كله ، وانصرافى عنه يشتد من حين إلى حين ، وأنا أحس شوقاً إلى شيء جديد ألمحه ، ولا أتبينه ، تحسه أعماق نفسى وضمير قلبى ولكنه لا يستبين لعقلى ولا ينجلى لرأيى ، فأنا حائرة دون أن أعرف مصدر هذه الحيرة ، هائمة دون أن أعرف موضوع هذا الهيام ، مشوقة دون أن أتبين غاية هذا الشوق ، وأنت تسليني عن هذا كله ، وتقوم فى نفسى وقلبى مقام هذا كله ، فأنا

أظهر لك نفسى كما هى وقلبى كما هو ، ولعلى أتبسط إلى أبعد من هذا فأجلس إليك فى لبسة المتفضل ، لا متحرجة ولا متأنفة . ولا متكلفة شيئًا يتصل بالزى أو بترتيب الهندام ، إنما هى الحرية المطلقة حرية النفس وحرية الجسم ، أصطنعها متى أغلقت الباب من ورائى وجلست إليك . وأنا أجد فى هذا راحة وطمأنينة ، ولكنى أجد فى هذا شيئًا يسيرًا خفيًّا من قلق يتردد فى ضميرى بين حين وحين . فماذا تقول أمى ؟ وماذا يقول أبى ؟ وفيم يفكران لو أنهما قرأا هذه الأحاديث التى أسرها إليك ؟ هذه مشكلة جديدة لا بد من أن أجتهد فى حلها . فلم يكن لى على أبوىّ سر أو كنت أحتفظ بسرى . وبما يخطر لى من السخف فى هذا الضمير الذى لا يظهر عليه الآباء والأمهات ؛ ولكنى الآن أجهر بهذه السخافات وألقيها إليك . وأنت تستطيع أن تضمن لها البقاء ما تركت آمنًا محفوظًا من العاديات ، ولكنك لا تستطيع أن تؤمن نفسك من أن تمتد إليك الأيدى وتجرى على صفحاتك العيون . أنت حافظ للسر ولكنك لا تستطيع له كتمانًا . فلا بد من أن أعينك على هذا الكتمان ولا بد من أن أخفيك وأبالغ فى إخفائك على الناس جميعًا ، وعلى أبوىّ بنوع خاص وعلى أخى هذا العفريت المارد بنوع أخص . وما كان أغنانى عن هذا الجهد الجديد ، ولكن لا بد مما ليس منه بد .

٣

ولكنى أبثك هذه الأحاديث ، وأنت لا تعرف من أمرى شيئاً . ألست ترى أن هذا غريب ؟ إنى لا أفضى بأيسر أمرى إلى أحد حتى أعرفه وحتى يعرفنى ، فكيف بى أظهر لك نفسى كما هى ؟ ولم أعرفك إلا أمس ، وأنت لا تعرف من أمرى شيئاً . إنى لغافلة ذاهلة حين أتصور فيك العقل والشعور والمعرفة ، وحين أتحدث إليك كما أتحدث إلى الناس ، ولكنى مضطرة إلى ذلك مكرهة عليه ، لا أستطيع أن أرى فيك إلا صديقاً ، وإلا صديقاً يسمع لى ويفهم عنى ، لأنى فى حاجة إلى هذا الصديق ، وإن كنت لا أدرى مصدر هذه الحاجة ، ولولا ذلك لما اشتريتك ، ولما اتخذتك أميناً على السر وحفيظاً على نجوى الضمير .

ولست أرى بذلك بأساً ، وقد قرأت فى بعض الكتب أن بعض بلاد الشرق كانت تشترى الرقيق من الصبية فتنميهم وتربيهم وتؤدبهم وتدربهم ، ثم تتخذهم لها قادة وملوكاً . وما أنا فى حاجة إلى أن أنميك أو أربيك أو أؤدبك أو أدربك لأتخذك لى صديقاً . فأنت تكفينى كما أنت ، وأنت بعد هذا كله تعيننى على أن أنمى نفسى وأربيها ،

وعلى أن أؤدب نفسى وأدربها ، وعلى أن أعرف نفسى حين أعرفها لك ، وأقدمها إليك . فأنت صديقى ،وأنت نجيى ، ولا بد للصديق من أن يعرف صديقه ، ولا بد للنجى من أن يعرف نجيه . فاعرفنى إذن . وإنى مقدمة إليك نفسى كما عرفتها بل كما جهلتها ، لأنى سأظهرك عليها باحثة عنها ، ملتمسة تعليل كثير مما صدر عنها من عمل وتفكير لم أفهمه حين صدر عنها ، ولكنى أظن إنى سأفهمه الآن بعد التفكير والروية .

اعرفنى إذن لأنى سأقص نفسى عليك ولأنك ستصاحبنى منذ اليوم وستتلقى أسرارى وستحاسبنى أو ستعيننى على أن أحاسب نفسى عن كل ما أعمل ، وعن كل ما أجد .

أليس من الغريب أنك لا تعرف اسمى إلى الآن ! فليكن هذا أول ما تعرف من أمرى ، فأنا فتاة سأبلغ العشرين بعد أيام تسميها أسرتها لين ، ويسميها الناس مدلين مورل .

وما أنا متحدثة إليك بتاريخى البعيد فقد استعرضت ما أذكره منه فى أثناء النهار فلم أجد فيه غناء ، وأشفقت أن أقصه عليك فتسخر منى وتضيق بى لأنه تاريخ الألوف من الفتيات الفرنسيات اللاتى ينشأن فى الطبقات الوسطى من أهل الريف الفرنسى . ولكن يحسن أن تعلم أن الحرب الكبرى قد أدركتنى حين كدت أتم الرابعة عشرة من عمرى ، وقد كنت تلميذة تتهيأ للشهادة الثانوية ، جادة فى

الدرس مشغوفة بالعلم دائبة على التحصيل ، أتمت عامها الدراسى وظفرت بجوائز كثيرة ممتازة ، وعادت إلى أهلها فى قريتهم هذه فى عطف من أعطاف الجبل فى السفوا ، سعيدة راضية عن عامها مستبشرة مغتبطة بما ستنعم به من الراحة والسياحة وألوان الرياضة مع إخوتها الثلاثة ، وأترابها الكثيرات أثناء الصيف .

وكنت أصغر إخوتى سنًّا وكان أكبرنا قد تخرج فى كلية الطب ليعمل مع أبينا فى صناعته ثم ليخلفه على عيادته بعد عمر طويل ، فكان قد أتم الرابعة والعشرين من عمره ، وكان ثانى إخوتى قد أتم الحادية والعشرين من عمره وظفر بإجازة الليسانس من كلية الحقوق ، وهو يتهيأ للعمل عند بعض الموثقين ولتحصيل إجازة الدكتوراه أثناء ذلك ، فأما الثالث من إخوتى فكان فى السابعة عشرة من عمره قد ظفر بالشهادة الثانوية ، ويريد أن يذهب إلى باريس ، ليتهيأ فيها لدخول مدرسة المعلمين .

وكانت أسرتنا راضية موفورة ليست بذات ثروة ضخمة ، ولكنها ليست ضيقة اليد ولا سيئة الحال ولا عاجزة عن أن تعيش عيشة فيها كثير من رغد وخفض ، وآية ذلك أنا كنا نتهيأ فى ذلك الصيف لألوان من العيش لا يتهيأ لها الذين قتر عليهم الرزق .

فقد كان أخواى يريدان أن يتركا فرنسا ليذهب أحدهما إلى إيطاليا ، والآخر إلى بلاد اليونان والترك . وكان أصغر إخوتى يريد أن يلحق

برفاق له فى جبال الفوج ، وكنت أتهيأ لأذهب مع أبوى وبعض أترابى إلى ساحل المحيط فى بيارتز . ولكن جو أوروبا يزدحم بالسحب ثم تخفق فيه البروق ، وتقصف فيه الرعود ، ثم تثور العاصفة فتحطم كل أمل وتغير كل اتجاه ويذهب أخواى لا إلى إيطاليا ولا إلى اليونان ولكن إلى حيث تريد توجيههما وزارة الحرب . ويذهب أبى متطوعًا للخدمة الطبية فى بعض المستشفيات قريبًا من الحدود ، وأبقى مع أمى وأختى فى قريتنا هذه آمنين من غارات الحرب ، غير آمنين أنباءها المنكرة ، ومناظرها البشعة ، إذا انحدرنا إلى هذه المدينة أو تلك . فرأينا هذا السيل الذى كان يتدفق بالجرحى على المستشفيات ، وذلك السيل الذى كان يتدفق بالمحاربين على الحدود . ولكنى مع ذلك لم أذق الحرب ، ولم أبلُ مرارتها ولم أحس لذعها الذى يحرق القلب ويغرق العين ، إلا بعد أن قدمت الحرب وبلغت من عمرها البشع ستة أشهر ، حين جاءنا النبأ بأن أكبر أخوى قد صرع فى أحد الميادين . هنالك عرفت الحرب وأحسست آلامها ، ولكن أسابيع لم تمض على هذا النبأ حتى يلحقه نبأ آخر بأن ثانى أخوى جريح يمرض فى أحد المستشفيات ، ثم لا يتم العام حتى تظهر فى الأسرة ظاهرة من جنون لم ينكرها أبى حين استشير فيها بالكتب والرسائل ، وأنكرتها أمى ولكنها لم تجرؤ على أن تظهر إنكارها إلا بالإذعان والبكاء المتصل ، وأنكرتها أنا أشد الإنكار وأعنفه ولكن أحدًا لم يسمع لى وإنما كانت تلقانى الأسرة بالتلطف والتعطف والتسلية ،

وهذه الظاهرة هى تطوع أخى الصغير للخدمة العسكرية قبل أن يبلغ سن الحرب . وكان يقول قد صرع أحد أخوى وجرح الآخر وما ينبغى أن تخلو ميادين الحرب من أحدنا .

ثم يسافر ذات يوم مع الصبح فنودعه ثم لا نراه إلى الآن .

٤

لم تكن ليلتى سعيدة أمس ، وإنما انقضت شاحبة يملؤها الحزن والبؤس والشقاء . فقد انصرفت فجأة عنك أيها الدفتر العزيز وحيل بينى وبين المضى فيما كنت أقص عليك من أنباء نفسى وأحاديث أسرتى .

صرفنى عن ذلك ما أثارته هذه الأحاديث وتلك الأنباء من شجون وأحزان امتلأ بها قلبى وغرق فيها ضميرى ، والتبست لها الأمور على نفسى ، ثم لم تلبث أن استأثرت بحسى الظاهر فأجرت فى جسمى رعدة خفيفة أول الأمر ، ثم عنيفة بعد ذلك ، لم تهدئها عنى إلا هذه الدموع التى انحدرت من عينى غزاراً . لقد كنت أحسب أن قد هدأت اللوعة وسكت عنى وعن الأسرة هذا الجزع الذى ملكنا وأفسد علينا أمورنا كلها حين انتهى إلينا النبأ بمصرع أخى الصغير . فإذا أنا لا أكاد أبدأ الحديث إليك حتى ينكأ الجرح وتثور العاصفة ، وحتى يضطرب من حولى كل شىء ، وحتى يفسد علىّ كل شىء ، وحتى أغرق فى هذا الحزن الشامل ، الذى يصرفنى عنك وعن نفسى والذى ينسينى مكانى منك ، ومكانى من كل شىء ، والذى يشغلنى ويشتمل علىّ اشتمالا تامًّا ، فأنفق

ليلة ما أدرى كيف أنفقتها ، ما أعرف إلى أى لحظة منها بقيت يقظى ، وفى أى لحظة منها أدركنى النعاس ، وإنما أتنبه لنفسى حين يمسنى برد الصباح ، فإذا أنا كما كنت حين بدأت الحديث إليك ، لم أنتقل من مكانى ولم أتحول عن مجلسى ولم أدر كيف قضيت الليل .

هنالك أنهض فزعة مرتاعة متسائلة ماذا كان يمكن أن يكون لو أن البرد لم يوقظنى ؛ ولو أنى لبثت على هذه الحال حتّى تستيقظ الأسرة وحتّى تظهر علىّ فى هذا الوضع الذى كنت فيه ؟ هنالك أعمد إليك فأخفيك ، وأعمد إلى سريرى فأحدث فيه شيئًا من الأضطراب ، ثم آوى إليه كارهة متكلفة ، لتعلم الأسرة أنى قد قضيت ليلة عادية لم أخرج فيها على المألوف؛ ولكنى تبينت من هذا كله أنى كنت أكذب على نفسى ، أو أن نفسى كانت تكذب علىّ حين كنت أزعم أنى قد أخذت أتسلى عن الحزن وأتعزى عن كوارث الحرب . وما أشك الآن فى أن الأسرة كلها تكذب على نفسها فتتكلف السلو ، وتتصنع العزاء ، وتلقى حجابًا رقيقًا على أحزانها وآلامها ، تتخذه من مشاغل الحياة وأغراضها المتصلة لأنها لا تستطيع أن تمضى فى هذا الحزن العنيف جاهرة به مظهرة له . لا تستطيع ذلك لأن للحياة ظروفها و بواعثها إلى العمل والجد ، ولا تستطيع ذلك لأنها تحسب لمراقبة الناس حسابًا أعظم مما تقدر وتظن . وما أشك الآن فى أننا جميعًا نلتقى بوجوه باسمة أو غير مكترثة ، ونمضى فى حياتنا بهذه الوجوه التى تبتسم وتظهر التجلد ،

ولكنه ابتسام لا يدل على شيء إلا على التكلف والتصنع ، ولا يصدر عن شيء إلا الحزن المر ، واليأس الممزق للقلوب . ولكنه تجلد يسير هين لا يكاد يثبت إلا متهالكًا متضائلا ، يكفي أن تعرض له الذكرى فإذا هو يتبدد ويزول ، كما يتبدد سحاب الصيف . وآية ذلك أنا نتجنب إذا التقينا وأخذنا فى الحديث ذكر الفقيدين الشهيدين ، والإشارة إليهما من قريب أو بعيد مخافة أن يخرج ذلك بنا عن طور التكلف هذا الذى أخذنا به أنفسنا ، وأجرينا بيننا عهداً صامتًّا على أن نلزمه ، ونحن فيه لتستقيم لنا الحياة ، كما تستطيع أن تستقيم لقوم لا يجدون ينبوع الحياة فى قلوبهم ، وإنما يستمدون حياتهم من الخارج ويستعيرونها من الحوادث والظروف ، فهم يحيون متكلفين ، ولولا هذا التكلف لما ظفروا من الحياة إلا بأسباب واهية لا تغنى عنهم شيئًا .

وما أشك الآن فى أن أمر أبوىّ شر من أمرى ، فإن لى من الشباب نشاطه وآماله ما يسليني ، رضيت ذلك أم كرهته ، وما يعينني على أن أتجنب الذكرى ، وأفر من الحزن ، فأما أبواى فليس لهما من هذا كله شيء . فقد فقدا نصف آمالهما حين فقدا اثنين من أبنائهما الأربعة ، وبقى لهما نصفها الآخر كئيبًا شاحبًا لا يثير نشاطًا ، ولا يدعو إلى جد ، ولا يكاد يبعث فى النفوس فرحًا ولا ابتهاجًا ، وهما يتجنبان الحديث فى كل هذا بمحضر منا ولكنهما يضمران

غير ما يظهران ، ويتحدث كل منهما إلى صاحبه بما يذكى النار فى قلبه ويضاعف الحزن على نفسه ، وكل منهما مع ذلك رفيق بصاحبه شفيق عليه يخفى عليه أكثر مما يظهر له . لهما الله ما أشد ما يقاسيان وما أعظم ما يألم كل منهما إذا خلا إلى نفسه ، واستطاع أن يرفع هذا الحجاب الرقيق المتكلف ، وأن يلقى وجهاً لوجه هذه الصورة البشعة التى تركتها لنا الحرب والتى رأيتها أمس فأنفقت أشنع ليلة وأشقاها .

٥

ولم يكن النهار خيرًا من الليل ، وكأنما اصطلحت مظاهر الطبيعة وأسباب الحزن على نفوس هذه الأسرة البائسة ، فاضطرتها إلى هذا السجن البغيض الذى هو أثقل شىء عليها ، لأنه يخلى بينها وبين حقائق الأشياء ، ويكرهها على أن تخلو إلى نفسها وتعكف على آلامها وتذعن لهذه الخواطر المحزنة المؤلمة التى تضطرب فى نفوس المحزونين والبائسين .

فقد أصبحنا وإن الشمس لتنشر على القرية وما حولها من هذه الآكام اليسيرة التى ترتفع وتتدرج فى لين ورفق ودعة غشاء رقيقًا جدًّا من الضوء ، يسحر العين ولكنه يثير فى النفس شيئًا من الحزن والأسى لما ينقصه من القوة والثبات والاستقرار ، ويحمل النفس على أن تتساءل : أقادر هذا الضوء على أن يثبت ويقوى فيغمر الأرض بحرارته وجماله ويبعث فيها القوة والنشاط ، أم منهزم هو أمام هذه السحب التى تسعى من بعيد سعيًا رفيقًا ولكنه ملح ؟ وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى كان جواب هذا السؤال واضحًا ، فقد انجاب عن الربى والآكام هذا الغشاء الرقيق المتهلهل من ضوء الشمس ، وامتلأ الجو بهذا السحاب الذى كان يسعى ثقيلاً يبطىء من ثقله لا من رفقه ولا من كلسه . وهذه

الآكام تحجب عنا ، وهذه الربى تخفى علينا ، وهذه آفاقنا تحد من كل وجه ، وهذا السحاب الثقيل البطىء يدنو من الأرض ويسعى فى السماء وكأنه يزحف على الأرض زحفًا . وهذه ظلمة كثيفة تأخذنا من كل وجه . وها نحن أولاء نتحدث فيما بيننا بأن يومنا لن يكون مضيئًا ولا مشرقًا ولن يكون يوم عمل ونشاط .

وما نطيل الحديث فى ذلك فقد أخذنا نسمع قصف الرعد بعيدًا ولكنه يدنو ، وإنها لعاصفة عنيفة ، قد ثارت فى السماء فوقفت الحركة وألجأت الناس إلى دورهم ، وهذا المطر ينهمر غزيرًا عنيفًا وكل شىء يدل على أنه سيتصل وسيستغرق اليوم كله . وها نحن أولاء قد لجأنا إلى دارنا كما لجأ الناس ، وخلونا إلى أنفسنا وأخذنا نشغلها بالحديث حينًا ، وبهذه الأعمال اليسيرة حينًا آخر ، ولكن الغريب فى أمرنا أن صبرنا على الحديث ضئيل ، ليس له حظ من ثبات أو استقرار ، كأنما يخاف بعضنا بعضًا ، وكأنما يشفق بعضنا من بعض . وكأنما نحذر إن اتصل الحديث أن ينتهى بنا إلى ما لا نحب ، فنحن نقتصد فيه اقتصادًا ، وينتهى بنا إلى البخل والإغراق فى الصمت . وأى شىء أبغض من الصمت المتصل بين أسرة متحابة متعاطفة ؟ لا تستطيع الحديث ، لأنه قد ينتهى بها إلى ما تكره ، ولا تستطيع الصمت لأنه قد يكون أسرع بها من الحديث إلى ما لا تحب .

وإذن فليفر بعضنا من بعض حتى لا يؤذى بعضنا بعضًا بالحديث

ولا بالصمت ، وقد فعلنا . فأما أنا فخلوت إلى الكتب ، وأما أبواى وأخى فالله يعلم إلى إلامَ خلَوْا ، وبماذا اشتغلوا ؟

وتجمعنا المائدة ، فياله من اجتماع كئيب كله حيرة وكله ألم ، وكله تردد بين هذا الحديث المتقطع الذى لا غناء فيه ، وهذا الصمت الكثيف الملح الذى يريد أن يتصل ، والذى يقول أكثر من كل حديث . ومع ذلك فقد لاحظت غموضًا فى وجه أمى وشيئًا من الألغاز فى وجه أبى ، ولاحظت فيما كانا يلقيان إلىّ من النظرات شيئًا من العناية لم أتعوده من قبل ، فيه إشفاق ظاهر وحنان قوى ، وحب لم يتعودا أن يظهراه على هذا النحو . ولم يكن حديثهما إلىّ ، على تقطعه وندرته ، يخلو من بعض هذا . فقد كان الصوت رقيقًا عذبًا أرق وأعذب مما ألفت ، وكانت الجمل غامضة ملتوية بعض الشىء ، وكان فيها تلميح للمستقبل ولكنه تلميح حزين ، يريد أن يخفى حزنه وأن يظهر مسرورًا مبتهجاً بعض السرور والابتهاج . ولم يكن أخى بأوضح من أبوى وجهًا ولا نظرًا ، ولكن غموض وجهه ونظراته لم يكن يشوبه الحنان والعطف ولا الإشفاق والحب ، وإنما كانت تشوبه هذه الدعابة الماكرة التى ألفتها منه ، والتى ضقت بها غير مرة لأنها لا تخلو من قسوة تبعث الحنق وتثير الغيظ ، وربما رأيت على وجهه بين حين وحين ابتسامة لا تخلو من سخرية ، ولكنها فى الوقت نفسه لا تخلو من مودة ودعابة ومزاح . ليس من شك فى أن بينهم أمرًا يخفونه ،

ولا يريدون أن أظهر عليه إلا شيئًا فشيئًا ، كأنهم يهيئوننى له تهيئة ، ويعدوننى له إعدادًا . فما عسى أن يكون هذا الشىء ؟

لقد فكرت فيه ، وزعمت لنفسى أنى لا أعرفه ، وأنى حريصة على معرفته ، وأنى ضيقة بجهلى له وغموضه علىّ . وما أرى إلا أنى كذبت على نفسى ، وما أرى إلا أنى تعمدت هذا الكذب ، فإن نفوسنا — نحن الفتيات حين نبلغ من حياتنا هذا الطور الذى أنا فيه — معقدة أشد التعقيد ، ملتوية أعظم الالتواء . والغريب أن آباءنا يظنون بنا السذاجة ويأخذوننا كما يروننا وينتهى إيمانهم بسذاجتنا إلى أن يقنعنا نحن بهذه السذاجة ، وإلى أن يخدعنا نحن عن أنفسنا ، وإلى أن يخيل إلينا ويلقى فى روعنا أننا كما يظنون ، لا نفهم الحياة ولا نتعمقها ، ولا نكاد نعرف ما يهيأ لنا وما يراد بنا . ونحن ننظم سيرتنا على هذا النحو من النفاق ، من النفاق الذى لا نكاد نحسه ولا نتبينه ، فضلاً عن أن نعتمده أو نقصد إليه .

كذلك أرادت أوضاع الحياة الاجتماعية أن يخدع الآباء عن أبنائهم وأن يخدع الأبناء عن أنفسهم وأن تمثل فى كل دار بين الشباب والشيوخ أو بين الجيل الذى يستقبل الحياة والجيل الذى يستدبرها قصة قوامها هذا النحو من الخداع تضحك أحيانًا ، ولكنها تحزن وتسوء فى كثير من الأحيان .

زعمت لنفسى أصيل هذا اليوم أنى لم أفهم غموض أبوىّ وتلميحهما

وأنى لم أفهم غموض أخى ودعابته . ولكننى كنت كاذبة على نفسى ، ولن أكذب عليك أيها الدفتر العزيز فقد عاهدتك على أن تعرفنى كما أنا ، واستعنتك على أن أعرف نفسى . لقد فهمت عن أبوى وعن أخى كل شيء . إنما كانوا يعرضون بالمستقبل القريب ، ويشيرون إلى خطبة تضطرب أحاديثها فى الجو من حولى ، وتهيأ لها الأسباب تهيئة وهم يخفون أمرها علىّ حتى يتم الإعداد لها ، وحتى يصبح الحديث إلىّ فيها مجدياً لا ينتهى بى إلى شك ولا إلى خيبة أمل . وأنا أعرف هذا كله وأرقب هذا كله محبة لأبوى ، راحمة لسذاجتهما مكبرة لحنانهما ممزقة القلب من الحزن أن تتهيأ الحياة لتبتسم لى ، ومن حولى كل هذا الحزن العابس وكل هذا الألم العميق .

٦

ولكنى لا أعرف من أمر هذه الخطبة التى تهيأ ويتصل فيها حديث الأسرة أكثر مما ذكرت . وما أخفى عليك ولا على نفسى أيها الدفتر العزيز أنى قد ضقت بهذا الجهل ، وثقل على هذا الغموض ، ووددت غير مرة لو استطعت أن أنفذ إلى قلب من هذه القلوب الثلاثة الكريمة التى تحيط بى ، وتمتلئ بحبى لأرى ما يثور فيه من عاطفة ، وما يضطرب فيه من تفكير ، ولكنى لم أحاول قط أن أسترق السمع ، أو أختلس بعض ما يتصل من حديث ، لأنى أرى ذلك نكرًا يأباه الخلق ، وتنكره سيرة الفتاة المهذبة التى نشئت تنشئة حسنة ، وربيت تربية صالحة . وأى شيء أبغض من التسمع على الآباء والاحتيال فى استراق الحديث ؟ وقد أنحدر فى التفكير إلى أعماق نفسى فأستكشف شيئًا لا أكاد أحققه ، ولكنى أضيق به ضيقًا شديدًا ، فقد يخيل إلى أن الذى دفعنى إلى أن أتخذك لى صديقًا ، وأحاول أن أفضى إليك بأسرار نفسى ، إنما هو هذا الشعور الغامض الذى وجدته منذ أيام حين أحسست الغموض الطارئ على ما بينى وبين الأسرة من صلة ، وحين تبينت أو خيل إلىّ أنى أتبين من هذا الغموض تفكيرًا فى

الخطبة وتهيئة للزواج . لم أكن أستطيع أن أبادى بهذا الحديث أخى ، أو أحد أبوىّ ، فضلا عن أن أبادى به إحدى صديقاتى ، وقد هممت أن أطيل الحديث فيه إلى نفسى مفكرة مقدرة ، ولكنى وجدت فى ذلك مشقة وعنه عجزًا .

لم أكن أحاول التفكير فيه حتى أصرف عنه وتدفع نفسى إلى التفرق وخواطرى إلى الشرود ، فلم أر بدًّا من الالتجاء إليك ، والاعتماد عليك ، لأجمع هذه النفس المتفرقة ، وأرد هذه الخواطر الشاردة . وما أرى أنى قد ألقيت إليك كل هذه الأحاديث إلا فرارًا من هذه الحقيقة التى أواجهها الآن ، وتأخيرًا لهذه الساعة التى لا أستطيع الآن لها تأخيرًا . إنى لأجد مشقة شديدة فى تحليل هذا الشعور الذى يغمر نفسى ، ويملأ قلبى منذ استكشفت سر أبوى دون أن أصل إلى كنهه ، أو أتبين جليته ، فأنا سعيدة من غير شك وإن كنت أخفى هذه السعادة حتى على نفسى لأن الأوضاع الاجتماعية تريدنى على ذلك . أنا سعيدة حين أفكر فى هذه الخطبة التى تهيأ ، وفى هذا الزواج الذى يعد ، وأى فتاة مثلى لا تسعد بالتفكير فى الخطبة والزواج وأنا ثائرة أشد الثورة ، بأن أبوى يفكران فى ذلك وحدهما ، ويستأثران به من دونى ، ولا يشركانى فيما يكون بينهما من تفكير أو حديث ، كأنما الأمر يعنيهما أكثر مما يعنينى ، ويمسهما أكثر مما يمسنى ، وأنا مشفقة من عواقب استئثارهما بهذا الأمر ، وانفرادهما بالتفكير

فيه ، أخشى أن يتقدما فيه إلى أبعد مما ينبغى وأن أصبح أو أمسى ذات يوم وإذا أنا أمام أمر واقع لا أستطيع أن أخلص منه إلا بالعنف الذى أكرهه ، وبالخلاف عن أمر أحب الناس إلىّ وآثرهم عندى وأكرمهم على .

ثم أنا بعد هذا وذاك حائرة ، يكاد حبي للمعرفة يقهر كل عاطفة أخرى فى نفسى ويملك علىّ كل أمرى ، ويصرفنى إلا عن البحث والتفكير فيمن عسى أن يكون هذا الشاب ، الذى يفكر أبواى فيه ويهيئان للصلة بينى وبينه .

يا للعجب ! ! متى يشعر الآباء بأن الزواج لا يهيأ على هذا النحو وبأن الخطبة لا تعد على هذا الأسلوب ، وبأن أمر الحب لا يدبر تدبيراً ؟ ومع ذلك ، فقد قلت ، وما زلت أقول ، إنى سعيدة بالتفكير فى الخطبة والزواج ، وآية ذلك هذا الذهول الذى يستغرق أكثر وقتى حين أخلو إلى نفسى ، والذى تملؤه أحلام غريبة ؛ منها الجميل الرائع ، ومنها المخيف البشع ، وكلها على ذلك يرضينى ، ويملأ نفسى سروراً وابتهاجاً . ومن يدرى ، لعل فى تكتم أبوى واستئثارهما بالأمر من دونى بعض الخير ، فهو الذى يبيح لى هذه الأحلام ، ويغمرنى بهذا الذهول ، ويدفع نفسى إلى هيام لا يخلو من لذة، لعل الأخلاق تنكرها ، ولعل الحياء — حياء العذارى — يمنعنى أن أسطرها أو أصورها ، لولا أنى أفضى بذات نفسى إلى صديق

مثلك أمين يتلقى الأسرار فيخفيها حتى على نفسه .

إنى لأستعرض عدداً غير قليل من الشباب الذى أظن بهم الكفاءة ، وأقدر أنهم خليقون أن يفكروا فىّ ،أو يسألوا عنى ، أو يطمعوا فى القرب من أسرتى . أستعرضهم وأرى نفسى تتنقل بينهم كما تتنقل النحلة بين الألوان المختلفة من الزهر ، لا تكاد تلم بهذه الزهرة حتى تنتقل منها إلى زهرة أخرى ، ثم إلى زهرة ثالثة ، وعلى هذا النحو . وإنى لأستحى من هذا الهيام الآثم الذى لا أرضاه من غيرى لو أقبل عليه غيرى ، ولكنى مع ذلك أعترف بأنى غارقة فيه ، مؤثرة له مستمتعة به معتذرة مع ذلك عن نفسى ، لأن أبوى هما اللذان دفعانى إليه حين استأثرا من دونى بالتفكير فى أمر هذه الخطبة ، ولو أنهما أظهرانى على ما يدبران من الأمر لاقتصرت هذه النحلة الهائمة المتنقلة على زهرة واحدة ، فوقفت عندها ولم تعدها إلى غيرها من الزهر . ولم تضطر إلى الاستمتاع راغمة بهذا الهيام الحلو البغيض .

وكذلك أنفق ساعات طوالا مع هذا الشاب أو ذاك من شباب القرية ، ومن شباب القرى المجاورة فأسمع منه وأتحدث إليه وأبلو أخلاقه وأمتحن سيرته ، وانصرف عنه راضية حيناً وساخطة حيناً آخر ، حامدة مرة وناقدة مرة أخرى . وأنا مع ذلك سجينة غرفتى ، أو مضطربة فى البيت ، أو متنزهة فى الحديقة ، خالية إلى نفسى على كل حال ، لا أرى من هؤلاء الشباب أحداً ولا ألقاه بحديث ، حتى

طال على هذا الأمر وثقل على نفسى هذا الهيام ، وأخذت أكره التفكير فى الخطبة والزواج ، وأتمنى أن ينجلى هذا الغموض وأن تتاح لنفسى هذه الهائمة ، غاية واضحة تقف عندها ، مفكرة مقدرة فتقبل عليها آخر الأمر أو تنصرف عنها .

٧

وهذا يوم من الأيام ينقضى كما انقضت هذه الأيام القليلة الماضية ، لا تنجلى فيه الحقيقة لهذه النفس الحائرة ، ولا تستطيع نفسى أن تبرأ من حيرتها وأن تفكر فى غير ما دفعت إلى التفكير فيه ، ومع ذلك فقد حاولت أن أشغلها عن ذلك بالقراءة وبالحديث . فلما لم تغن القراءة ولا الحديث تكلفت شيئاً من النشاط ، فخرجت للتروض وأبعدت فى المشى ، ولكنى رجعت كما خرجت مفرقة النفس شاردة الخواطر ، مضطربة بين الثورة والهيام ، فلم أكد أستقر وأستريح من جهد الرياضة حتى استأنفت النشاط وخرجت فزرت بعض الصديقات وأخذت معهن فى ألوان من الحديث مختلفة ، ولكنى كنت أحس دائماً أن لى نفسين إحداهما تلقى الصديقات وتتحدث إليهن وتسمع منهن ، والأخرى مقيمة فى أعماق الضمير ظاهرة غير مستخفية ، ناطقة غير صامتة ، تبحث وتستقصى وتسأل وتلح فى السؤال ، وتهيم وتشقى بالهيام . وما أظن إن اتصل الأمر على هذا النحو إلا أنه سيظهر لأسرتى ، وستنكر أمى بعض سيرتى ، وسأضيق بهذا الإنكار وبما سيتبعه من السؤال .

ما أشد حاجتى إلى رحلة قصيرة تخرجنى من هذه البيئة وتصرفنى

عن هذه الخواطر . ولكن هل إلى الرحلة من سبيل ؟ إن قوانين الأسرة صارمة صلبة لا مرونة فيها ولا لين . الرحلة ميسرة لنا فى الصيف ، نصعد فى الجبل إلى أرفع من هذه القرية التى نعيش فيها ، أو ننحدر إلى المدينة أو إلى ما يليها من شواطىء ، أو نبعد فى السفر فنهبط إلى ساحل البحر ، فنغير الجو والإقليم تغييراً تامًّا . وقد كانت الأعوام التى سبقت الحرب تتيح لنا الإمعان فى السفر وتجاوز حدود فرنسا من هذه الناحية أو تلك ، وربما سمحت لنا بركوب البحر وعبوره أيضًا .

الرحلة ميسرة فى الصيف لأنها تبيح لنا الاستمتاع بحقنا من الراحة . والرحلة ممكنة فى الشتاء على أن تكون قصيرة ، وعلى أن تكون قريبة ، وعلى أن تدعو إليها الظروف ، فقد نزور هذا الفرع أو ذاك من فروع الأسرة التى أراد حسن الحظ ألا تجتمع فى قرية واحدة أو فى إقليم واحد ، وإن تقاربت مواطنها وسهل تزاورها . الرحلة ميسرة فى الصيف ممكنة فى الشتاء ولكنها محظورة فى غيرهما من فصول السنة إلا أن تدعو إليها ظروف قاهرة . ومهما تكن رغبتى فى الرحلة فإنى أوثر البقاء على أن أرحل مستجيبة لبعض هذه الظروف . وما أدرى بعد ذلك ، أواجدة أنا فى نفسى الشجاعة على السفر إن تهيأت لى أسبابه ؟ فليس من اليسير ولا من الأشياء التى أستطيع احتمالها ترك هذين الشيخين المحزونين ، وهذه الأم البائسة ذات القلب الكسير

والبال الكاسف والحياة التى أظلمت من جميع جوانبها ، ولم يبق فيها إلا هذا الضوء الضئيل الذى يأتى من أخى ومنى فيعينها ويعين زوجها على الصبر والاحتمال .

لا ، ليس إلى الرحلة من سبيل ، وما ينبغى التفكير فيها فضلاً عن التحدث بها وحسبى أن يوماً سيأتى بعد وقت طويل أو قصير أرحل فيه عن هذه الدار وأنأى فيه عن هذين الشيخين ، وأن هذا مصير أخى ، وأن أمر هذين الأبوين صائر إلى هذه الوحدة المنكرة التى لا أفكر فيها إلا امتلأت لها نفسى حزناً ، وامتلأ منها قلبى رعباً . وحسبى أن هذين الأبوين الكريمين يهيئان لأنفسهما هذه الوحدة ، ويعدان لأنفسهما هذه العزلة ، يؤديان بذلك ما يريانه واجباً عليهما وحقاً لنا ، لا يفكران فيما هما أهل له من عطف ، ولا يذكران ما قد يحتاجان إليه من معونة . إنهما يفكران فى ذلك ويجدان ، هما الآن يفكران فى خطبتى وزواجى ، وسيفكران غداً إن لم يكونا قد فكرا ، فى خطبة أخى وزواجه ، وهل لهذا كله نتيجة بالقياس إليهما إلا الوحدة المظلمة والعزلة المؤلمة والحياة القاتمة التى يحياها أصحابها وقد يئسوا من ماض لا سبيل إلى عودته وانتظروا مستقبلاً أيسر ما يقال فيه أنه الضعف والعجز والفناء والموت ؟

كلا ، ما ينبغى لى أن أفكر فى الرحلة ، بل ما ينبغى لى أن أفكر فى فراق هذين الشيخين قبل أن يكون لى من هذا الفراق بد ،

والبال الكاسف والحياة التى أظلمت من جميع جوانبها ، ولم يبق فيها إلا هذا الضوء الضئيل الذى يأتى من أخى ومنى فيعينها ويعين زوجها على الصبر والاحتمال .

لا ، ليس إلى الرحلة من سبيل ، وما ينبغى التفكير فيها فضلاً عن التحدث بها وحسبي أن يوماً سيأتى بعد وقت طويل أو قصير أرحل فيه عن هذه الدار وأنأى فيه عن هذين الشيخين ، وأن هذا مصير أخى ، وأن أمر هذين الأبوين صائر إلى هذه الوحدة المنكرة التى لا أفكر فيها إلا امتلأت لها نفسى حزناً ، وامتلأ منها قلبي رعباً . وحسبي أن هذين الأبوين الكريمين يهيئان لأنفسهما هذه الوحدة ، ويعدان لأنفسهما هذه العزلة ، يؤديان بذلك ما يريانه واجباً عليهما وحقاً لنا ، لا يفكران فيما هما أهل له من عطف ، ولا يذكران ما قد يحتاجان إليه من معونة . إنهما يفكران فى ذلك ويجدان ، هما الآن يفكران فى خطبتى وزواجى ، وسيفكران غداً إن لم يكونا قد فكرا ، فى خطبة أخى وزواجه ، وهل لهذا كله نتيجة بالقياس إليهما إلا الوحدة المظلمة والعزلة المؤلمة والحياة القاتمة التى يحياها أصحابها وقد يئسوا من ماض لا سبيل إلى عودته وانتظروا مستقبلاً أيسر ما يقال فيه أنه الضعف والعجز والفناء والموت ؟

كلا ، ما ينبغى لى أن أفكر فى الرحلة ، بل ما ينبغى لى أن أفكر فى فراق هذين الشيخين قبل أن يكون لى من هذا الفراق بد ،

بل ما ينبغي لى أن أضيق بشيء أو أن أظهر لهما انى ضيقة بشيء ، وإنما أيسر حقهما عليّ ألا يريا منى إلا وجهـًا مشرقـًا ، وثغرًا باسمًا ، ونفسـًا راضية ، وقلبـًا مطمئنـًا يملؤه الحب والوفاء ويفيض منه العطف والحنان .

وإنى لقادرة على ذلك ، وإنى لراغبة فيه حريصة عليه ، لولا هذا الخاطر الثقيل الملح الغامض الذى أثاره فى نفسى أمر الخطبة وحديث الزواج .

أعنّى ، أيها الدفتر العزيز ، على أن أكون جلدة حازمة ضابطة لأمرى ، مالكة لنفسى مسيطرة على عواطفى وخواطرى ، محتملة لهذا الهيام الغريب الذى أحبه وأبغضه ، والذى أقدم عليه وأحجم عنه .

أعنّى ، أيها الدفتر العزيز ، فإنى فى حاجة إلى معونتك لأقف من نفسى ومن أبوىّ هذا الموقف الغريب ، الذى لا أكاد أتصوره حتى أرتاع له ، وأضحك منه ، فهو مروع حقـًا ومضحك حقـًا . أتريد أن أفضى إليك بخبيئة نفسى ودخيلة ضميرى ؟ إذن فأصغ إلىّ ، واستمع لى ، ولا تضحك منى ، إنى عاشقة قد تيمها العشق ، ولكنى عاشقة لشخص مجهول لا أعرف من أمره شيئـًا . هو هذا الذى يفكر أبواى فى أن يكون لى زوجـًا .

٨

إنك تسرفين فى السهر يا ابنتى ، وأخشى أن يؤثر ذلك فى صحتك ، بل أكاد ألمح آثاره فإنى أرى لونك حائلا ووجهك شاحبًا ، وأحس منك فتورًا لم أتعوده ولا أحب أن أحسه .

قالت لى أمى ذلك بعد أن منحتنى قبلة الصباح ، ثم وضعت يديها على كتفىّ ، وحدقت فى وجهى فأطالت التحديق ، ثم ضمتنى إليها ووضعت على خدىّ قبلتين ، لم تكد تفرغ منهما حتى انحدرت من عينيها دموع غزار ، وحتى خنقت العبرة صوتها فولت منصرفة ومضت إلى غرفتها لا تلوى على شىء ، وكان هذا كله مفاجئًا لم أكن أتوقعه ، وكان هذا كله سريعًا لم يتح لى أن أفكر فيه . دفعتها إليه الغريزة ، ودفعها إليه ما يملأ حياتها من حزن وإشفاق ، ولم أكن أقل منها تأثرًا بالغريزة ، فمضيت فى أثرها مسرعة حتى انتهيت إلى غرفتها ، فإذا هى جاثية أمام الصليب صامتة مغرقة فى الصمت ، لا ينطلق لسانها بالصلاة ولا يندفع صوتها بالبكاء ، والدموع تنحدر من عينيها صامتة أيضًا ، وقد أظلها الحزن الهادئ الوديع بجناحيه ، فظهرت عليها سكينة مؤثرة تملأ القلب حزنًا وأسى ، وتشيع فيه رهبة وجلالاً . وقد قمت منها غير بعيد ، ولبثت أرمقها بنظرات ما أرى

إلا أنها كانت تحمل بعض ما كان يفيض به قلبى من حب وحنان ، وكأنها أحست وقع هذه النظرات على شخصها فتحولت عن الصليب فى أناة وهدوء ثم نهضت متثاقلة وهى تهدى إلىّ ابتسامة حلوة ، يبللها الدمع ثم سعت إلىّ حتى بلغت مكانى فضمتنى إليها مرة أخرى وقبلتنى متمالكة متماسكة، ثم أخذت بيدى ومضت تسعى حتى انتهت إلى كرسى طويل فجلست وأجلستنى إلى جانبها ، وطوقت عنقى بذراعها ، وجعلت تنظر إلىّ فتطيل النظر ولا تقول شيئاً . وما أشك فى أن نظرها هذا الصامت الطويل إنما كان صراعاً بين حبها لى وحزنها هذا المتصل . وكانت تريد أن ترد الحزن إلى مقره من أعماق نفسها ، وأن تقيم فى المكان الظاهر من قلبها حبها لى وبرها بى وعطفها علىّ . وقد أتيح لها ذلك بعد لحظة فجعلت تلاطفنى بيدها تمسح بها خدى مرة وتجرى أصابعها فى شعرى مرة أخرى . وجعل نظرها إلىّ يتصل كما كان ولكنه يهدأ ويرق ويلين حتى صار حناناً وعطفاً ، ولم يتح للسانها مع ذلك أن ينطلق بشيء ، ولم يتح لشفتيها مع ذلك أن تنفرجا عن شيء .

والغريب أن لسانى أنا أيضاً قد ظل معقوداً ، وأن شفتىّ أنا أيضاً قد ظلتا مقفلتين ، وقد كنت مع ذلك أدرت فى نفسى كلاماً أريد أن أقوله لها ، وقدرت فى خاطرى ألفاظاً حلوة أريد أن أرسلها إلى نفسها الثائرة وقلبها المكتئب ، ولكنى أنسيت كل شيء ولم أجد

فى نفسى شيئًا ، ولم أستطع أن أدير لسانى بحرف . وإذا أنا ألاطفها كما تلاطفنى وأداعب خدها وشعرها كما تداعب خدى وشعرى وأقبلها بين حين وحين .

وما أدرى أطال مجلسنا هذا أم قصر ، ولكنى أعلم أنى كنت أسرع منها إلى النشاط فقد نهضت خفيفة رشيقة فاستقبلتها ثم انحنيت عليها فأخذت كتفيها فهززتهما هزًّا عنيفًا رفيقًا معًا وأنا أقول لها فى صوت حزين يتكلف الفرح وبوجه عابس يتصنع الابتسام : « هلم هلم يا أماه ما هذه القصة الصامتة التى أخذنا فى تمثيلها منذ اليوم ؟ أى شىء طرأ وأى حادث عرض ؟ ألم أنهك عن هذا البكاء ؟ ألم أحرم عليك هذا الإغراق فى الحزن ؟ ما أجمل هذه التحية التى استقبلتنى بها ! أهكذا تلقى الأمهات بناتهن حين يشرق لهن وجه النهار ؟ هلم هلم يا أماه إنك خليقة أن أغضب عليك وأن أعاقبك عقابًا شديدًا فأعبس لك النهار كله وأعرض عن حديثك إلى الغد . هلم هلم ما كنت أدرى أن السن تتقدم بك فتردك إلى سيرة الصبية والأطفال » .

أقول لها ذلك متكلفة أول الأمر . ولكن التكلف يزول شيئًا فشيئًا ، وإذا أنا أرانى جادة ويخيل إلىّ أنى قد صرت لها أمًّا وأنها قد صارت لى بنتًا ناشئة ، وأنى أؤدبها وأهذبها وآخذها فى سيرتها بالرشد والصواب ، وإذا أنا أنهضها فلا تمتنع علىّ . وإنما تستجيب لى فتنهض

غير متثاقلة ، وإذا أنا أطوق خصرها بذراعى وأسعى معها رفيقة فتسعى مطيعة مذعنة وعلى وجهها إشراق كئيب ، وعلى ثغرها ابتسام حزين ، حتى إذا خرجنا من غرفتها وأغلقت الباب من دوننا ، قلت لها فى لهجة العاتبة لقد أخرت ساعة إفطارى ألا تستحين ؟ إنك قد أفطرت من غير شك فلا عليك ألا يفطر الناس ، ومع ذلك فإنى لن أفطر الآن عقاباً لك !

فتلتفت إلى وتهم أن تتكلم ، تريد من غير شك أن تحرضنى على الإفطار ، ولكنى أريحها من الكلام قائلة لقد صرفت نفسى عن الرغبة فى الطعام والشراب ، ولا بد لى من لحظات قصار أتنسم فيها الهواء وأطوف فى أثنائها بالحديقة ، وأحس فى أثنائها ما يملأ الحديقة من زهر وشجر ، وأتلقى تحية الزهر والشجر أيضاً ، وستشهدين هذا كله وسترافقيننى فى هذه الرياضة ، فلعها ترد إليك بعض الحكمة ولعلك تثوبين معها إلى الرشد ولعلها تهيئك لإفطار جديد فلن أفطر وحدى هذا اليوم ولا بد من أن تحتملى هذه الخطيئة التى لا أغتفرها .

أقول لها هذا كله فى صوت يضطرب بين الشدة والهدوء ، وبين التكلف والجد ، وهى تسمع لى مذعنة أول الأمر ، ثم مقبلة على مبتسمة لى وما هى إلا لحظات حتى نكون فى الحديقة مطوفتين ، أنا أقف بها من حين إلى حين عند هذه الجماعة أو تلك من النجوم والأزهار . متحدثة إليها ألواناً من الحديث عن هذه النجوم والأزهار ،

داعية البستانى بين وقت ووقت . أستفسر منه مرة ، وألومه طوراً ، وأنهاه طوراً ، وما أزال على ذلك حتى أرد إلى قلبها بعض الأمن ، وإلى نفسها بعض الهدوء ، وإذا هى تشاركنى فى بعض الحديث وتوافقنى فى هذه الملاحظة وتخالفنى فى تلك ، حتى إذا بلغت من ذلك كله مأربى رجعت بها إلى غرفة المائدة ، فاضطرت متكلفة. وأكرهتها على أن تشرب قدحاً من القهوة ، ثم أمضيت معها الضحى كله أجاذبها أطراف الحديث فى شؤون مختلفة متباينة ، لا تتصل بى ولا بأخى ، ولا بالفقيدين الشهيدين ، وإنما تتصل بأهون الأشياء وأيسرها وأجدرها أن ينفق فيه الوقت ، ويستعان به على احتمال الحزن والألم .

وكذلك أنفقنا صباح اليوم حليفتين على دفع هذا الضيف البغيض الذى أراد أن يغزو دارنا وأن يفسد أمرنا وأن يردنا إلى شر ما كنا . ولم أفارق أمى إلا حين تقدم المساء ، وبعد أن فرغنا من غدائنا ومن هذا الحديث الذى تعودنا أن نأخذ فيه بعد الغداء . ولم أتركها وحيدة وإنما أوصيت بها إلى أبى ونبهته فى رفق إلى أنها لم تكن حكيمة ولا رشيدة صباح اليوم ، ومن يدرى لعله هو أيضاً لم يكن حكيماً ولا رشيداً ، ولعله لم يكن أقل منها حزناً ، ولكن الرجال يحسنون الصبر ويتقنون التجلد ، ويبلغون من كظم الحزن وإخفاء العواطف ما لا يبلغ النساء .

وخلوت إلى نفسى بعد ذلك فجعلت أستعرض ما كان من الأمر

وألتمس له ، كما تعودت ، العلل والأسباب ، ولكنى لم أستطع أن أرد هذه الأزمة الطارئة المفاجئة إلى سبب معقول أستريح إليه . وكيف عرفت أمى أنى أسرف فى السهر ؟ إنها إذن تلاحظنى أكثر مما كنت أظن . لقد كنت أحسب أنى كنت آمنة على خلوتى إذا افترقنا حين يتقدم الليل ، وأن كلا منا يأوى إلى غرفته فيفرغ لنفسه من كل إنسان ، ومن كل شىء وتؤجل الصلات بينه وبين الناس والأشياء إلى غد ، ويستمتع بحريته الكاملة ساعة قبل أن يغلبه النوم . كنت أظن ذلك ، ولكنى كنت واهمة ، فهذه أمى تلحظنى بعد أن نفترق ، وتعرف أنى أسرف فى السهر ، وتلومنى فى ذلك لومًا رفيقًا .

وليس من شك فى أنها تلاحظنى منذ أيام ، فهى لم تقل لى لقد أسرفت فى السهر أمس أو أول من أمس ، وإنما قالت لى إنك تسرفين فى السهر . إنها لا تتعمد هذه الملاحظة فليس هذا من خلقها ، ولكن المسكينة مؤرقة دائمًا تسرف فى السهر عن اضطرار ، لا عن عمد ، وما أكثر ما يضطرها الأرق إلى النهوض من سريرها والاضطراب فى غرفتها والوقوف إلى النافذة تستنشق الهواء وتنظر إلى السماء ولعلها تلتمس نفس هذا أو ذاك من فقيديها الشهيدين ، متحيرة بين هذه الأشعة الضئيلة التى ترسلها النجوم إلى الأرض . وأكبر الظن أنها لاحظت الضوء ينبعث من نافذتى ، فصبرت على ذلك مرة ومرة ، فلما تكررت الملاحظة وطال الأمر لم تطق على ذلك صبرًا فدفعها

الإشفاق إلى هذا التنبيه . والغريب أن لنافذتى أبواباً ، وأن من دونها أستاراً وأن هذه الأستار إن أسدلت وتلك الأبواب إن أغلقت خليقة أن تحجب الضوء وتمنعه من النفوذ .

ولكنى لا أحسن إليك الخلوة أيها الدفتر العزيز ، ولا أحتاط حين أناجيك وأفضى إليك بأسرار الضمير ، على أنى لم أفهم كيف انتهى إشفاق أمى علىّ من الإسراف فى السهر بنفسها إلى هذه الأزمة الحادة ، فقد كان من أيسر الأشياء أن تدعونى إلى ما تحب ، وتنهانى عما تكره ، دون أن يضطرب قلبها هذا الاضطراب العنيف . أترى حزنها يعظم لها الهين من الأمر ويكبر لها الصغير من الشأن ويخيفها من أقل الأشياء دعاء للخوف ؟ أترى فقدها لابنيها يملأ قلبها حرصاً على استبقاء ابنيها الآخرين ، فهى تشفق عليهما من أيسر الأمر وأهونه ؟ أم ترى أن فى الأمر شيئاً آخر وأنها لم تكد تتحدث إلىّ وتضمنى إليها حتى ثارت فى نفسها عواطف وعرضت لها شؤون وتصورت المستقبل القريب أو البعيد وأشفقت من فراق قريب أو بعيد فثارت العاصفة وكانت الأزمة ؟

وإذن فما زلنا فى هذا السر الغامض والحديث الملتوى والتفكير الخفى فى الخطبة والزواج .

ولم تطل خلوتى إلى نفسى ، ولم يطل تفكيرى فى هذا الأمر . فهذا أخى قد أقبل على غير عادة فجعل يخلط الهزل بالجد ، ثم

أظهر الرغبة فى أن يخرج معى للتروض وقد أنكرت عليه ذلك فلم يحفل بالإنكار وامتنعت عليه فلم يأبه للامتناع ، وظفر فى آخر الأمر بما أراد فأخرجنى من الغرفة ثم من الدار وجعل يهيم بى فى الغابات هابطاً ومصعداً ومحدثاً أفانين من اللعب والمرح والجنون ، ولم يردنى إلى الدار إلا حين آن وقت العشاء .

لقد سلانى حزن أمى عن نفسى صباح اليوم ، وسلانى مرح أخى عن نفسى مساء اليوم ، وكنت أظن أنى سأستقبل هذه الليلة بما كان من حديث الصباح والمساء ولكن أبى أراد أن يشغلنى بشىء غير هذاا الحديث .

لقد أقبل علىّ قبل أن نفرغ من العشاء وقال فى صوت هادئ رزين حزين : إن أمك تشفق من إسرافك فى القراءة . فماذا تقرئين إذن ؟ قال أخى : إن أمنا لتشفق من أيسر الأشياء، وما أرى إلا أن مادلين غارقة فى قصصها السخيف تنصرف إليه عن عمل النهار وراحة الليل ، فلا تلمها ولُمْ هؤلاء الكتاب الذين يفسدون على الناس حياتهم بما ينشرون من هذا القصص الذى لا رأس له ولا ذيل .

ولولا أنى ملكت نفسى لوثبت إلى أخى فقبلته ، فقد فتح لى باب المعاذير على غير علم منه ولا إرادة ، وأتاح لى أن أجيب بأن ما يقوله حق . فأنا عاكفة هذه الأيام على قراءة الكاتب الإنجليزى

ويلز . قال أخى : وليتك تحسنين القراءة إنما تتبعين القصة وتعرضين عما فيها من وصف وفن . قلت : ما أنت وذاك ، إنك لا تعرف كيف أقرأ ، وأنا على كل حال خير منك فأنت لا تقرأ شيئاً .

وكنت أريد أن يشتد الخصام بين أخى وبينى فأصرف أبى عن هذا الحديث الذى أخذ فيه ، ولكنه قال فى صوته الحزين الرزين : ستختصمان حين تخلوان إلى أنفسكما ، فأما الآن فإنى أحب لك يا ابنتى أن تقرئى فى النهار وتستريحى فى الليل ، وإذا لم تحرصى على الراحة لنفسك فاحرصى عليها لتطمئن أمك وتستريح . وهممت أن أجيب ، ولكن أبى مضى فى الحديث قائلاً : « ليس من الخير أن تغرقى فى القراءة على هذا النحو ، وما أشفق على الشباب من شىء كما أشفق عليه من هذا العكوف المتصل على الكتب ؛ فإن العقل ليس كل شىء ، وقد يكون للجسم بعض الحق فى أن يعيش . وأكبر الظن يا ابنتى أنك ضيقة بالحياة فى هذه القرية ذات الآفاق المحدودة وفى أسرتنا هذه التى فقدت ما كانت تألف من فرح وبهجة . وسنّك فى حاجة إلى الفرح والإبتهاج » . وأهم أن أجيب ولكنه يمضى فى الحديث قائلاً : « ولعل من الخير أن تغيرى من حياتك بعض الشىء وأن تتركى هذه البيئة الشاحبة الحزينة ، وقتاً ما ، وتعيشى فى بيئة أخرى فيها ترفيه على النفس ، وتسلية عن الهم وتحقيق لما ينبغى من نشاط . فكرى فى ذلك ، وسنفكر ، ولكن

عدينى منذ الليلة بأنك ستقتصدين فى القراءة وستريحين أمك من هذا الخوف الجديد » قلت وقد اضطربت نفسى أشد الاضطراب وظهرت آيات الارتباك فى وجهى وصوتى : « لك ما تشاء يا أبى ، ائذن لى ، ولتأذن لى أمى ، فى أن أمضى الليلة فى القراءة لأتم قصة بدأتها أمس ، وما أرانى أستطيع أن أصبر عنها إلى غد » . قالت أمى : « الليلة فحسب » قلت : نعم . قال أخى : « الأمر أيسر من هذا ، إن عادت إلى السهر قطعنا عنها ضوء الكهرباء» . وتضاحكنا فى حزن !

ثم افترقنا حين تقدم الليل وخلوت إليك أيها الدفتر العزيز ، فلم أتم قصة بدأتها وإنما حدثتك بما كان من أمرى . وها أنا هذه حائرة ، لا أدرى كيف تكون خلوتى إليك منذ الغد ، وحائرة أيضاً لا أدرى كيف خطر لأبى أن ينفينى عن هذه البيئة الحزينة الشاحبة إلى بيئة أخرى لها حظ من فرح وابتهاج . وحائرة أيضاً لا أدرى أأستجب إلى ما أراد عليه من الرحيل أم أظهر الخلاف والامتناع ؟ ولكن الشىء الذى لا أتردد فيه هو أنى سأخلو إليك ! وسأبثك حديثى فى النهار أو فى الليل ، وفى المقام أو فى الرحيل .

٩

نظرت إلى شخصه فامتلأ به قلبي ، وسمعت صوته ففتنت به نفسي ، وراقصته ساعة فصرفت إليه عن كل شيء .

نعم عن كل شيء حتى عنك أنت أيها الدفتر العزيز ، فقد مضت أيام طوال لم أبثك فيها سرى ولم أفض إليك فيها بحديث نفسى ، وكنت قد عاهدتك على أن أجدد الخلوة إليك فى الليل أو فى النهار وفى المقام أو فى الرحيل ، ولكنى لم أفعل كما ترى . وما أدرى أأنكرت غيبتى عنك وضقت بإبطائى عن لقائك ، ولكن الذى أعلمه أنى صرفت عنك كارهة فى اليوم الذى تلا آخر ما أفضيت به إليك من حديث .

شغلت بأمر هذه الرحلة التى أصبحت فرأيتها قد دبرت لى تدبيراً ، وفرضت على فرضاً ، ولم يبق لى إلا أن أهيىء لها نفسى وآخذ فى أسبابها ولم يمد لى الوقت للتهيؤ والأخذ فى الأسباب ، وإنما دعيت إلى ذلك أول النهار ، وانحدرت بى السيارة إلى المدينة فى آخره وقضيت ما بين ذلك فى إعداد ما لم يكن من إعداده بد لغيبة قد تتصل أسابيع .

وانتهيت إلى المدينة حين تقدم الليل شيئاً ، فكان لقاء عمّى

وأبنائها ، وكان العشاء ، وكان السمر المتصل والأحاديث المختلفة ، ثم آويت إلى غرفتى متعبة متهالكة مؤثرة أن أسلم نفسى إلى النوم على أن أخلو إليك لأبثك السر وآمنك على نجوى الضمير . ثم أفيق من غد فإذا أبناء عمى قد أقبلوا على وكأنما كلفوا أنفسهم أو كلفهم غيرهم أن يحولوا بينى وبين الفراغ لنفسى والخلوة إليها ، فهم لا يفارقوننى وجه النهار وهم لا يكفون عن التحدث إلى بألوان الحديث ، وإظهارى على ما تعود أمثالهم أن يظهروا عليه مثلى من شؤون دارهم ومن شؤونهم الخاصة حتى إذا كان الغداء ، وخيل إلى أنى سأخلو بعده إلى نفسى لأستريح ولأتحدث إليك شيئاً حيل بينى وبين هذا أيضاً . فقد هيأ هؤلاء الشياطين رياضة تستغرق ما بقى من النهار ؛ رياضة فى البحيرة نطوف أثناءها بهذه الشواطئ الجميلة الهادئة المطمئنة التى تبعث فى النفوس هدوءاً واطمئناناً ، الباسمة الحزينة التى تبعث فى النفس حزناً وابتساماً ، والتى تدفع إلى كثير من التفكير الغريب المؤثر الذى لا يستبد به العقل ، وإنما يشترك فيه العقل والحس والشعور . والذى ينتهى بصاحبه إلى أن يمتزج بهذه البيئة الحلوة الهادئة ، ويكاد يفنى فيها ويحيى فى نفسه رغبات هادئة ولكنها ملحة غامضة ، ولكنها مع ذلك تكاد تنم عن نفسها لثنايا القلب وأعماق الضمير .

رياضة فى هذه البحيرة ، وتطويف بهذه الشواطئ ، وإلمام ببعضها ثم تصعيد هادئ فى هذه الربى التى ترتفع فى رفق وكأنهـــا

مبسوطة ليس لها حظ من الارتفاع ، ثم انحدار مرة إلى هذه الغابة عن يمين ، وانحراف مرة أخرى إلى هذه الغابة عن شمال ، واضطجاع هنا على هذا العشب الكثيف ، وتنافس هناك فى اقتطاف هذه الأزهار الصغار الدقاق وإلى اجتناء هذه الأثمار الوحشية الحلوة التى تمتلئ بها الغابات . ثم نداء فجائى إلى الإسراع بالعودة ، فقد أقبل الليل، ولا بد من أن نتهيأ للعشاء فإنا لن نجلس إلى المائدة وحدنا ولكن أسرة فلان مدعوة إلى العشاء هذا المساء، وما كنت أعرف من أمر هذه الدعوة شيئاً ، وما كنت أفكر إلا فى أننا سنقبل على طعامنا كما فعلنا أمس وسنسمر طرفاً من الليل نتجاذب فيه الحديث ، وقد نختلف فيه إلى البيانو ، وقد نستمع فيه لبعض الغناء تدعى إليه هذه أو تلك من بنات عمى ، فتقبل عليه كارهة أو متكلفة للكراهة ، وكنت أفكر فيما بينى وبين نفسى أن القوم سيدعوننى إلى العزف وسيلحون على فى الغناء ، وكنت أكره ذلك وأضيق به ، ولكننى كنت أذعن له كما أذعن للقضاء المحتوم . فهذه قوانين الأسرة لا سبيل إلى الخلاف عنها أو الامتناع عليها .

وكنت أدير فى نفسى لحنين أو ثلاثة من ألحان شوبان لأوقعها على البيانو ، وأغنيتين أو ثلاثاً من أغانى فوريه لأغنيها إن دعيت إلى ذلك .

وكنت أستذكر هذا كله فى أثناء الرياضة والحديث ، وكنت

حريصة أشد الحرص على ألا يظهر منى ضعف أو يبدو منى تقصير ، فقد لا ينبغى أن يتحدث عنى بنات عمّى بأنى قد نسيت العزف أو قصرت فى الغناء . وإن أمى لحريصة أشد الحرص على أن أكون سباقة فى هذين اللونين من ألوان الفن ، وعلى أن يسجل السبق لى حين أكون فى هذا الفرع من فروع أسرتنا خاصة .

كنت أفكر فى هذا كله ، ولكن الأمور جرت على غير ما كنت أقدر ، فقد علمتُ أن القوم يولمون وأنهم قد دعوا إلى وليمتهم منذ أيام وأنهم تعجلوا هبوطى إليهم من قريتى تلك المرتفعة الشاهقة لأشهد وليمتهم هذه . ثم علمت فاشتد ضيقى بما علمت ، أن الأمر لن يقتصر على العشاء والسمر ولكنه يتجاوز ذلك إلى الرقص ، وإلى الرقص الذى لا يشترك فيه المدعوون إلى العشاء وحدهم وإنما سيشترك فيه معهم قوم آخرون دعوا إلى السهرة .

وكان هذا كله قد دبر فأحكم تدبيره وقد أخفى علىّ وكتم عنى ولم يرفع لى عنه الحجاب إلا قبل العشاء بساعة وبعض ساعة ، ولو قد علمت ذلك لما استجبت إلى الدعوة ، ولما انحدرت من القرية ، ولامتنعت على أبوىّ حين ألحا علىّ فى الرحلة ، فقد انقطع عهدى ، منذ الحرب وما تركت فينا من الأحزان . بهذه الحياة الفرحة المرحة ، وبهذا اللون من ألوان العبث البرىء . وما كنت أشك فى أنى سأعود إلى ذلك يوماً ما فلا بد للأحياء من أن يحتملوا الحياة ويتلقوا ما فيها

من الخير والشر . ولكنى كنت أقدر أنى سأعود إلى هذا كله شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً لا على هذا النحو المفاجئ الذى يأخذنى كأنه السيل الذى لا سبيل إلى التحول عنه أو التخلص منه .

ومهما يكن من شيء فقد وجدتنى مكرهة على ما لا أحب ، وما أشد ما ضحك منى أبناء عمتى حين رأوا ما ظهر على وجهى من ضيق وسخط ومن اضطراب وارتباك ، وما أشد ما سخروا منى فى أثناء العودة ، حتى إذا انتهينا إلى الدار تفرقوا عنى ومضوا يصلحون من شؤونهم ويتهيأون لاستقبالهم . وخلوت أنا إلى نفسى فى غرفتى لأصلح من شأنى ، وأتهيأ للاستقبال ، ولكنى رأيتنى أغرق فى بكاء عميق صامت لم أحاول تفسيره ولم أحاول الخروج منه ، وإنما وجدت فيه راحة ووجدت فيه لذة وأحسست فيه وفاء ، وكنت خليقة أن أمضى فيه لولا أن يطرق باب الغرفة طرقاً خفيفاً ، ثم يفتح الباب قبل أن آذن بالدخول ، ثم تظهر عمتى هادئة رزينة ، وقد أغلقت الباب من دونها وسعت إلىّ مطمئنة وهى تقول فى صوت خافت كأنما تتحدث إلى نفسها : « لم أخطئ التقدير إذن ! » ثم تدنو منى فتنحنى إلىّ فتقبلنى ، ثم تنهضنى فتضمنى إليها ضماً رفيقاً ملؤه الحنان والحب ، وقد أخذت دموعها هى أيضاً تنحدر . وقد رجعت تقول لى فى صوت تخنقه العبرة : « لا بأس عليك يا ابنتى ! لقد كنت أقدر أنى سأراك فى هذه الحال ، ولقد كنت أشفق أن تمضى فى حزنك هذا حتى

يصرفك عما لا بد لك منه . هلم يا ابنتى إن الحياة لا بد من أن تحتمل ، وإن فيها الحزن وإن فيها الفرح ، إن فيها الوفاء للموتى ، وإن فيها الوفاء للأحياء . لم يكن بد يا ابنتى من أن نخرجك من هذا الحزن المتصل الذى ألح عليك أعواماً إلى ما ينبغى لشبابك من الحيـــاة الباسمة المبتهجة ، إن اتصال الحزن قد يليق بالشيوخ الذين قضوا الآراب من حياتهم ، وقد ينبغى أن نهوّن عليهم الآلام ونعينهم على احتمال الخطوب حتى يخرجوا من هذه الحياة ، وقد ذاقوا من آلامها أقل ما يمكن أن يذاق ، ولكننا لا نطمع لهم فى السلوّ المطلق والعزاء الخالص ، فليس لهم إلى ذلك سبيل ، فأما أنت وأترابك من الشباب فإن لكم على الحياة حقًّا يجب أن يؤدى إليكم فى هذا الطور من أطوار شبابكم وللحياة عليكم حقوقاً ستؤدونها حين تتقدم بكم السن ، انظرى إلى أبويك لقد نعما بالشباب وذاقا لذاته كلها ، واستمتعا بما فيه من فنون الترف وألوان الغبطة ، وإنى لأشاركهما يا ابنتى فى الحزن وأشفق عليهما منه ، وأود لو استطعت أن أحطّ عنهما بعض أثقاله ، ولكننى لم أطق ولن أطيق أن يتسلط الحزن على الشباب وتثقل عليهم وطأته ، فإن الشباب لم يخلقوا للحزن ، ومن الظلم أن يتعجلوا نصيبهم من مرارة الحياة .

هلم يا ابنتى خذى بحظك من النشاط لهذه الليلة التى لم تهيأ إلا لك ، والتى يجب أن تظهرى فيها جميلة رائعة كأجمل ما كنت ،

وكأروع ما يمكن أن تكونى . يجب أن تكونى زينة المائدة ، وزينة المرقص ، ويجب أن يكون لك السبق والتفوق . هلم أصلحى من شأنك وسأرسل الخادم لتعينك على ما تحتاجين إلى المعونة فيه ، وسأعود لأراك قبل أن تهبطى إلى غرفة المائدة ، ويجب أن أرضى عن زينتك وإلا فستستأنفين من أمرك كل شىء .

ثم تقبلنى وتنصرف ، ثم تعود بعد ساعة فتنظر إلىّ مقبلة مدبرة مستعرضة ، وترضى عن كل شىء إلا عن وجهى هذا الذى ينقصه الابتسام والإشراق . ولكنها مطمئنة إلى أن أبناء عمّى سيفيضون عليه من ذلك ما ينقصه ، ثم يكون العشاء والسمر والرقص ، وقد كان بين المدعوين والسامرين والراقصين فتى نظرت إلى شخصه فامتلأ به قلبى وسمعت صوته ففتنت به نفسى ، وراقصته ساعة فصرفت إليه عن كل شىء . يا للعجب أكنت مُهيأة لهذا الفتى ؟ أكان هذا الفتى مهيأ لى ؟ أكانت خطبتى إلى هذا الفتى موضوع الحديث الغامض بين أبوىّ وأخى ؟ ما أدرى ، ولكن الفتى تردد على دار عمّى أياماً ثم تسألنى عمّى ذات صباح ما رأيك فى مكسيم جيرو ؟ فلا أدرى كيف أجيب ، وإنما أحس كأنما دمى كله قد صعد إلى وجهى وأرى ابتسامة حلوة على ثغر عمّى وأسمعها وهى تسعى إلى لتقبلنى إنه قد صعد مع أبويه إلى القرية ليزور أبويك .

١٠

ما أشد حيائى منك ومن نفسى ، أيها الدفتر العزيز ، لست أدرى أين وجدت القوة التى مددت بها إليك يدى لأستخرجك من مستقرك ، الذى وجدت فيه وحيداً مهملاً منسياً أكثر من ثلاثة أعوام . ولست أدرى كيف فكرت فيك ، وأقبلت عليك بعد اطراحى لك وإعراضى عنك . ولست أدرى كيف أجد القدرة على التحدث إليك الآن بعد أن وجدت القدرة على أن أطوى عنك الأحاديث طول هذه الأوقات المتصلة ، التى لا أقدر طولها ولا اتصالها إلا الآن .

ما أشد حيائى منك ومن نفسى ، فإن إقبالى عليك الآن وإفضائى إليك ببعض الحديث لا يدلان إلا على أنى امرأة كسائر النساء فيها ضعفهن وقصورهن وغرورهن ، وإلا على أنى كائن من هذه الكائنات التى تزعم أنها مميزة بالثقافة والحضارة وما خصت به الحضارة من ترقية العقل وتصفية الطبع وتنقية الضمير ، ورفع النفوس عن الصغائر والدنيات ، وما هى فى حقيقة الأمر إلا كائنات وضيعة قد اتخذت من الثقافة والحضارة طلاء يخدعها عن عيوبها الراسخة التى لا تكاد تفرق بينها وبين غيرها من أنواع الكائنات التى لا حظ لها من ثقافة أو حضارة أو تهذيب .

ما أشد حيائى منك ومن نفسى ، وما أشد اختلاط الأمر علىّ !
إنى لا أريد أن استأنف الصلة بينك وبينى بعد أن انقطعت فطال انقطاعها ، فلا أجد السبيل إلى ذلك ميسرة ولا ممهدة فأتردد وأضطرب وأقدم بين يدى ويديك مقدمات ومعاذير لا تغنى عن الحق شيئًا ، ولا تزيد على أن تصور خجلى واستخذائى من هذه الحقيقة البشعة التى أواجهها فتنقبض لها نفسى أشد الانقباض ويشمئز منها قلبى أعظم الاشمئزاز ، وأنظر مع ذلك كارهة فأطيل النظر وأفكر فيها مع ذلك راغمة فأطيل التفكير ، كأنى أجد فيما أحس من الألم لذة ، وفيما أشعر به من العذاب غبطة وسرورًا ، وهى أنى خائنة غادرة أثرة عاجزة ، نسيتك حين كنت سعيدة، وذكرتك حين أخذت تتراءى لى أشباح الشقاء .

ليتك أنسيت كل ما أفضيت به إليك من الأحاديث فإنى قد أنسيتها أو كدت أنساها ولكنك قوى الذاكرة، لا تنسى شيئًا، شديد الأمانة لا تضيع شيئًا . ولقد نظرت فيك فرأيت صورة نفسى المضطربة التى ائتمنتك عليها منذ أعوام ، والتى لجأت بها إليك ألتمس لها عندك العزاء والمعونة والتسلية . ورأيت ما قدمت إليك من العهود المؤكدة على أن أكون وفية لك مقيمة على الوفاء لما أهديت إليك من مودة، ولما بادلتك من ثقه ، وإذا أنا أستخذى، وإذا أنا أضيق بنفسى حتى أزدريها أشد الازدراء ، لقد وفيت لى فأعرضت عنك أكثر

من ثلاثة أعوام لا لشيء إلا لأنى كنت مشغولة عنك بهذه السعادة التى غمرتنى فصرفتنى عن الحياة والأحياء، وأنستنى الناس والأشياء، ووقفت قلبى وعقلى وحسى وشعورى وعواطفى وأهوائى على نفسى، وعلى هذا الفتى الذى اختطفنى من الحياة ذات مساء، وارتفع بى إلى جو بعيد فى السماء، فعاش معى فيه تلك العيشة الراضية التى كانت خليقة أن تطهر نفسى من كل رجس وتبرئها من كل عيب، وتنقيها من كل وضر، وتسبغ عليها من الفضائل ومكارم الأخلاق ما ينزهها عن الشر والنقص تنزيهاً. ولكنها لم تزد على أن نمت فيها هذه الغرائز البغيضة، غرائز الأثرة والخيانة والغدر والجحود. أليس صحيحاً إذن ما كان يقال من أن السعادة تطهر النفوس، ومن أن الحب يذكى القلوب؟ لقد كنت سعيدة، فلم تثر فى السعادة إلا الرغبة فى الاستزادة منها، ولقد كنت محبة فلم يثر فىّ الحب إلا الرغبة فى الاستئثار بمن كنت أهوى.

هون عليك أيها الدفتر العزيز، إنى لم أهملك وحدك ولم أختصك بالإعراض والنسيان، ولكنى أهملت معك قوماً ما كنت أقدر فى يوم من الأيام أنى سأهملهم أو أقصر فى ذاتهم أو أسوؤهم بالجحود والعقوق. لقد احتفظت بمظاهر الحب والود بينى وبين أسرتى، فزرتها واستزرتها وأقمت معها الأيام والليالى، واضطربت معها فى الحياة وخضت معها فى ألوان الحديث، ولكن الله وحده يعلم كم آلم الآن

حين أذكر ما أثرت فى قلب أمى من ألم ، وما بعثت فى نفسها من حزن ، وما أفضت على قلب أبى من هذا الشعور الواضح الكئيب ، بأن الأثرة قوام الحياة وبأن الأبناء يحيون لأنفسهم قبل أن يحيوا لآبائهم ، وبأن السعادة تغرى بالقسوة وتدفع إلى الأثرة وتصرف القلوب فى أكثر الأحيان عن البر والرحمة والحنان .

لم أسئ إلى أسرتى باللفظ ، ولم أسئ إليها بالعمل ، وما أراها تعتد علىّ بظاهر من التقصير أو الإهمال ، ولكنى مع ذلك أسأت إليها فأسرفت وآلمتها فغلوت ! انصرفت عنها إلى نفسى ، وشغلت عنها بحياتى ، وأظهرت لها ذلك مئات من المرات فى نبرات الصوت ، وفى حركات الجسم ، وفى لحظات الطرف ، وفى الإبطاء حين كان يحسن الإسراع ، وفى الإسراع حين كان يحسن الإبطاء ، وفى الفتور حين كان يجب النشاط ، وفى النشاط حين كانت تستحب الأناة . فى هذه الأشياء اليسيرة التى تحس وتلحظ ولكنها لا تكاد تثبت للتصوير والتعبير : هى أيسر من ذلك وأدق . هى تنفذ من أعماق النفوس إلى أعماق النفوس ، لا تكاد تمر على الألسنة ولا تكاد تستقر فى العقول ، ولا فى مظاهر الحس والشعور ، وهى من أجل ذلك مؤذية مهلكة شديدة الخطر على الحب والود ، وعلى ما بين الناس من صلات . هى أشبه شىء بهذه الجراثيم التى كانت تفتك بحياة الناس ، وتذيع فيهم ألوان الوباء والموت دون أن يحس لها الناس وجوداً ، أو يستطيعوا

منها احتياطاً . ولكن العلم قد كشف هذه الجراثيم وأخذ يعلم الناس كيف يعرفونها ، وكيف يدرسونها وكيف يتقونها . فمتى يستكشف العلم هذه الجراثيم المعنوية التي تفسد الود ، وتفتك بالحب ، وتقطع أمتن ما يكون بين الناس من صلات ؟ لا يشتد وجدك علىّ ولومك لى ، أيها الصديق العزيز ، فإنى لم أختصك بالخيانة ، ولم أوثرك بالغدر ، وإنما أشركت معك فى الخيانة والغدر قوماً آخرين لهم علىّ أكثر مما لك علىّ من الحق ، وهم بعد ذلك يشعرون أكثر مما تشعر . ويألمون أكثر مما تألم ، ويشقون بعقوق الأبناء أكثر مما تشقى بتقصير الصديق .

لقد أحببت أبوىّ حبًّا ما كنت أعرف له حدًّا ولا أمدًا ثم لم يمنعنى ذلك من أن أقصر فى ذاتهما ، ومن أن أوذيهما بالإهمال والإعراض حين أتيحت لى السعادة واستأثر بى الحب ، ولقد عاهدتك على الود الدائم والوفاء المقيم ، ثم لم يمنعنى ذلك من أن أعرض عنك وأنساك حين أتيحت لى السعادة واستأثر بى الحب . أمن الحق إذن أن الحب يقاس بالحاجة ؟ وأنى إنما أحببت أبوىّ لأنى كنت محتاجة إليهما ، متصلة بهما مدينة لهما بكل شىء ، فلما جاءتنى السعادة من مصدر غير مصدرهما ، ولما أحسست الحاجة إلى شخص غيرهما تحول عنهما حبى وقصر فى ذاتهما قلبى .

أفكنت محبة لك لأنى كنت محتاجة إليك أبثك همى وأتخفف إليك مما كان يثقلنى من الآلام والأحزان ؟ فلما صرفت عنى الهمو

ورفعت عنى الآلام والأحزان لم أحتج إليك ، فلم أحفل بك ولم أفكر فيك ، وتركتك فى مكانك هذا الذى استقررت فيه أكثر من ثلاثة أعوام ، يوشك أن يكون هذا حقاً ، وهو مؤلم وهو مخجل ، ولكن ، مالى لا أتشجع ومالى لا أواجه الحق ومالى لا أسجل على نفسى هذا الاعتراف بالخزى ؟ ما الذى حملنى على أن أفكر فيك وأخرجك من عزلتك الطويلة وأشق عليك بهذا الحديث الطويل الثقيل ؟ وما الذى حملنى على أن أكتب إلى أبوىّ منذ ساعة كتاباً طويلاً يفيض رقة وحبّاً وحناناً ويطلب إليهما إما أن يزورانى وإما أن يأذنا بزيارتى لهما ؟ ما هذا الحنان المفاجىء الذى يدفع بى إلى أحضان أبوىّ ؟ وما هذا الوفاء المفاجىء الذى يدفع بى إلى استئناف ما بينك وبينى من صلات الود ؟ هو الأثرة ، والأثرة وحدها . هو الأثرة التى تظهر فى مظهر الضعف والعجز والحاجة إلى التسلية والعزاء . لقد صرفتنى عنك وعن أبوىّ الأثرة التى كانت تظهرها السعادة قوية طاغية باغية عنيفة ، ولقد ردتنى إليك وإلى أبوىّ الأثرة التى تظهرنى ضعيفة عاجزة يائسة أشد اليأس شقية أشد الشقاء .

لقد جرى القلم إذن بما لم أكن أحب أن يجرى به ، ولقد سجلت على نفسى إذن ما كنت أكره أن أسجله ، وما منعت نفسى من تسجيله منذ أسابيع ، لقد اعترفت بأنى ضعيفة ، وبأنى عاجزة وبأنى بائسة شقية .

ولقد آثرتك أنت بهذا الاعتراف ، ولم أوثر أبوىّ منه بشيء لأنك أقدر على احتمال الشكوى ، ولأنك أحفظ للسر وأملك للعزاء ، ولم أحتج إليك فى يوم من الأيام كما احتاج إليك الآن أيها الصديق ، إليك وحدك أستطيع أن أشكو ، وعليك وحدك أستطيع أن أعول ، سأصدقك لأنك تحتمل الصدق، وسأكذب على أبوىّ لأن الصدق يقتلهما لو سمعاه .

أترى إليهما وقد ضحيا فى تربيتى وتنشئتى بما ضحيا ، واحتملا فى سبيل سعادتى ما احتملا ، وسعدا حين ظنا أنهما قد أتاحا لى هذه السعادة ، وتعزيا بذلك عن كثير من آلامهما ، بل تعزيا بذلك عن هذه الآلام التى صبها عليهما ما كان من التفريق بيننا .

أترى إليهما وهما يألمان لهذا الفراق ويشقيان بعزلتهما ويستلذان الألم ويستعذبان الشقاء لأنهما يظنانى سعيدة ؟

أترى إليهما لو عرفا أنى شقية بائسة ، وأنى قد استنفدت حظى من السعادة فى عام وبعض عام ، ثم أخذت هذه السعادة تكدر شيئًا فشيئًا ويمازجها البؤس قليلاً قليلاً ، ثم أخذت تضؤل وتهون وتمحى ، حتى صارت حياتى كلها ألمًا وشقاء . أترى إليهما لو عرفا هذا كله ؟ أيثبتان له ؟ أيتعزيان عنه ؟ أيصبران عليه ؟ كلاهما أضعف من ذلك . لقد قسوت عليهما حين كنت سعيدة ، فلأرفقن لهما ولأرفقن بهما حين استقبلت الشقاء .

أما أنت أيها الصديق العزيز فقد خلقت لغير هذا ، خلقت لتحتمل قسوتى عليك بالشكاة والأنين ، حين أشقى وأبتئس . وقد أخذت بحظك من قسوتى عليك أثناء السعادة والنعيم ، فأما حظك من قسوتى عليك بالشكاة والأنين فسيتصل ما اتصلت بك وبى الحياة .

١١

الآن نستطيع أن نتحدث فى يسر وإسماح ، أيها الصديق العزيز ، فقد عدنا إلى البيئة الهادئة الحلوة التى نشأت فيها مودتنا هادئة منذ أعوام ، حين تحدثت إليك لأول مرة بما كان يساور نفسى من اضطراب غامض عميق ، فوجدت فى الحديث إليك لذة وراحة وأمنًا ودعة .

عدنا إلى هذه الغرفة التى عرفت صباى ، وعرفت شبابى ، والتى رأتنى أنشأ وأتغير وأستقبل الحياة وما فيها من لذة وألم ، والتى رأيتها أنا ثابتة باقية ، وإن تغير ما يختلف عليها من الصور ، وما ينتظم فيها من الأداة والأثاث . عدنا إلى هذه الغرفة الصديقة التى نشأت بينها وبينى مودة قديمة ، لا أكاد أذكر متى ابتدأت ولا أكاد أعرف متى تنتهى ، ولا أشك فى أنى قد نسيت أشياء كثيرة ، أثناء الغيبة ، ولكنى لم أنسها ولم أنس مكانى أو أمكنتى منها ، وإنما كنت أرى نفسى فيها مضطربة وساكنة ، عاملة ومطمئنة إلى الكسل ، مفكرة وسترسلة فى الأحلام ، مستيقظة ونائمة ، آوية إليها بما كان يملأ نفسى من الابتهاج حينًا والابتئاس حينًا آخر ، مرسلة نفسى على سجيتها حين كانت تبتهج وتبتئس فستمتعة ، بأقصى حظى من

حريتى فى الفرح والحزن وفى الأمل والقنوط .

عدنا إلى هذه الغرفة التى تعارفنا فيها ، ولو أنك تمثلت لى الآن شخصاً لضممتك إلىّ ولمنحتك قبلة تصور فرحى بلقائك فى هذا المكان الأمين الوفى ، أشبه بهذه القبل التى أمنحها لأعضاء الأسرة حين ألقاهم فى هذه الدار ، بعد أن تطول الغيبة ويبعد الأمد ويشتد الشوق .

لست أدرى ، أتفهم عنى ؟ بل لست أدرى أيفهم الناس عنى إن تحدثت إليهم بأنى أجد القبلة التى أتلقاها من أمى وأبى ، وأضع فى القبلة التى أمنحها لأمى وأبى فى هذه الدار حرارة لا أجدها ، ولا أضعها فيما أتلقى منهما وما أمنحهما من القبل فى مكان آخر ؟ إن نفوسنا لغريبة الأطوار ، وإنها لشديدة التأثر بما يكتنفها من الظروف ، وما يحيط بها من الزمان والمكان .

لقد حاولت منذ أيام أن أتحدث إليك بدخيلة نفسى ، وأن أفضى إليك بهذه الآلام التى أخذت أحسها منذ حين ، وبهذا الشقاء الذى أخذ يسعى إلىّ شيئاً فشيئاً ، فلم أجد من نفسى نشاطاً لذلك ، ولا قدرة عليه ، وإنما جعلت أدور حوله ولا أتعمقه ، كأن شيئاً كان يصدنى عنه صداً ويصرفنى عنه صرفاً . وكأن هذا الشىء لم يكن إلا تلك البيئة التى كنا فيها ، فإنها لم تكن بيئة شكاة وتبسط فى الإفضاء بالسر والتخفف من الحياء . كنت أنظر إلى غرفتى تلك

فأشعر أنى طارئة عليها لا ناشئة فيها ، فأستحى منها وأستحى مما فيها من الأدوات والأثاث أن تظهر على مكنون سرى أو دخيلة أمرى ، لأنى كنت أراها غريبة لم تظفر منى بعد بهذه الثقة التى تبيح إذاعة السر والإفضاء بدخائل النفوس . ومع ذلك فقد ظهرت تلك الغرفة على كثير من أسرار نفسى ودخائل أمرى ، حين كنت أسعد بالحب ، وأنعم بتلك الحياة الرائعة فى غير تحفظ ولا تحرج ولا احتياط . لقد ائتمنتها على حبى وسعادتى وأظهرتها على فرحى ومرحى واغتباطى بالحياة . ولكنى لا أخفى عليك . كنت أحس شيئاً من الحياء دائماً ، مهما خرجت بى السعادة عن طور الوقار والأناة ، ولا أخفى عليك أنى لم أنس بعد ما أحسست من الألم اللاذع حين تمنيت شيئاً فلم أظفر به ولم أقدر عليه ، فقد كنت أحب أن أعرف زوجى وأواجه حبى فى هذه الغرفة التى عرفت صباى وشبابى ، والتى ألفتنى وألفتها ، لا فى تلك الغرفة الغريبة من ذلك الفندق الغريب فى مدينة البندقية ، ولا فى تلك الغرفة الغريبة من تلك الدار الغريبة التى أقمت فيها مع زوجى فى المدينة ، ولكن ذلك لم يتح لى لأن تقاليد الناس وأوضاعهم تريد أن يتعارف الزوجان فى الغربة ، وأن تبتدئ سعادة الحياة الزوجية فى أماكن ليست بينها وبينهما صلات أو عهود . ولست أخفى عليك أيضاً أنى لم أستطع أن أبثك حزنى وألمى فى تلك الغرفة من دار زوجى ، لأنها قد عرفتنى سعيدة مغتبطة

فلم تعرف من نفسي إلا هذه الناحية ، ووجدت المشقة كل المشقة والجهد كل الجهد في أن أظهرها من نفسي على الناحية الحزينة المبتئسة . بخلت بها على ذلك ، وبخلت بذلك عليها ، آثرتها بمظاهر السعادة والغبطة ، وآثرت نفسي بحقائق الحزن والشقاء .

ما أشد ما أخدع نفسي وأعبث بها ! ! وهل حياتنا إلا خداع وعبث ؟ لقد رأتني تلك الغرفة سعيدة ناعمة البال ، ولكنها رأتني مؤرقة مفرقة النفس ، رأتني كئيباً ورأت دموعي تنهل وسمعتني أمانع صوتي أن يجهش بالبكاء ، ورأتني أكظم الغيظ وأحبس الغضب في نفسي أن ينفجر وأرد نفسي بالعنف عن الثورة العنيفة ، وأكرهها على الصبر والاحتمال ، وأكلف ثغري الابتسام ووجهي الإشراق ، وإن قلبي ليدمى وإن في نفسي لكلوماً لا تؤسى . وأرفع رأسي عزيزاً أبياً ، وإن في نفسي لذلة وانكساراً . وأنا مع ذلك أزعم أني قد أخفيت على تلك الغرفة أسرار حزني وشقائي ، لا لشيء إلا لأني لم أتحدث بهذه الأسرار جهرة ، ولم أصورها في الألفاظ والجمل ، كأن تلك الغرفة في حاجة إلى الألفاظ والجمل لتعرف هذا الشقاء الذي نشأ فيها منذ حين يسيراً ضئيلاً ، ثم أخذ ينمو ويشسع حتى كاد يستأثر بها استئثاراً .

إن نفسي لغريبة الأطوار ، وإني لأجد بينها وبين نفوس الأطفال شبهاً قوياً ، فأنا كالأطفال أفيض الحياة على الأشياء

الجامدة من حولى ، وأشيع فيها العقل والحس والشعور ويخيل إلى أنها ترانى ، وتلحظنى وتسمع منى وتفهم عنى . ثم أتحدث إليها وأنتظر منها رجع الحديث كما يتحدث الأطفال إلى لعبهم ، وكما ينتظرون منها رجع الحديث .

وماذا أصنع الآن ؟ إنما أفيض عليك ، أيها الدفتر العزيز ، حياة وأشيع فيك حساً وعقلاً وشعوراً ، وأشكو إليك وأنتظر منك العزاء . لا أتكلف ذلك تكلف الأديب ، ولكنى أجدّ فى ذلك جد الطفل . ذلك لأنى ضعيفة عاجزة وحيدة ، لا أستطيع أن أتحدث إلى الناس بما أتحدث به إليك ، لأن الذين أنتظر منهم المعونة والعزاء لا يحتملون هذا الحديث ، ولا يقدرون لى على شىء ، بل لا يقدرون لأنفسهم على شىء ، ولأنى فقدت الثقة بغيرهم من الناس ، وكيف أستطيع أن أثق بالغريب وقد وجدت الخيانة من الغريب ؟ وكيف أستطيع أن أشكو إلى هذا الصديق أو ذاك وأنتظر منه تعزية أو تسلية أو نصحاً أو إخلاصاً وقد التمست النصح والإخلاص عند أحب الناس إلىّ وأكرمهم علىّ ، وعند أشد الناس لى حبًّا وأعظمهم لى إيثاراً فلم أجد منه إلا خيانة وغدراً ؟

لك الله ، أيها الزوج العزيز التعس ، لو تعلم إلى أى حد انتهى بك الإثم ، وإلى أى طور أخرجك النزق ، لو تعلم أنك قتلت نفساً وسحقت قلباً ومزقت ضميراً ، لو ينفذ هذا الشعور

الجامدة من حولى ، وأشيع فيها العقل والحس والشعور ويخيل إلى أنها ترانى ، وتلحظنى وتسمع منى وتفهم عنى . ثم أتحدث إليها وأنتظر منها رجع الحديث كما يتحدث الأطفال إلى لعبهم ، وكما ينتظرون منها رجع الحديث .

وماذا أصنع الآن ؟ إنما أفيض عليك ، أيها الدفتر العزيز ، حياة وأشيع فيك حسًّا وعقلاً وشعورًا ، وأشكو إليك وأنتظر منك العزاء . لا أتكلف ذلك تكلف الأديب ، ولكنى أجدّ فى ذلك جد الطفل . ذلك لأنى ضعيفة عاجزة وحيدة ، لا أستطيع أن أتحدث إلى الناس بما أتحدث به إليك ، لأن الذين أنتظر منهم المعونة والعزاء لا يحتملون هذا الحديث ، ولا يقدرون لى على شىء ، بل لا يقدرون لأنفسهم على شىء ، ولأنى فقدت الثقة بغيرهم من الناس ، وكيف أستطيع أن أثق بالغريب وقد وجدت الخيانة من الغريب ؟ وكيف أستطيع أن أشكو إلى هذا الصديق أو ذاك وأنتظر منه تعزية أو تسلية أو نصحًا أو إخلاصًا وقد التمست النصح والإخلاص عند أحب الناس إلىّ وأكرمهم علىّ ، وعند أشد الناس لى حبًّا وأعظمهم لى إيثارًا فلم أجد منه إلا خيانة وغدرًا ؟

لك الله ، أيها الزوج العزيز التعس ، لو تعلم إلى أى حد انتهى بك الإثم ، وإلى أى طور أخرجك النزق ، لو تعلم أنك قتلت نفسًا وسحقت قلبًا ومزقت ضميرًا ، لو ينفذ هذا الشعور

إلى نفسك ، لو يستقر هذا الخاطر فى عقلك ، إذن لكنت أشقى الناس ، وأضيقهم بالحياة وأزهدهم فيما تضطرب فيه من لذة ، وما تتهالك عليه من نعيم . لقد وثقت بك ثقة الطفل بأمه ، ولقد أمنت إليك كما يأمن الطفل إلى أمه ، فأضعت تلك الثقة وأزلت هذا الأمن ، ووطئت بقدميك نفساً أنت تحبها وتؤثرها ، وعرضت للشقاء والبؤس شخصاً هو أكرم عليك من نفسك وسعادته آثر عندك من سعادتك . ولكنك غافل لا تدرى . لقد هممت منذ أيام أن أرد عنك هذه الغفلة ، وأذود عنك هذا الجهل ، وأزيل عن بصيرتك الغطاء ، وأظهرك على هذا القلب الذى تدميه ، وعلى هذا الضمير الذى تؤذيه ، وعلى هذه النفس التى تمزقها تمزيقاً . ولكنى لم أجرؤ لأنى أحبك وأعلم أنك تحبنى وأخشى أن تكون المصارحة بما بينك وبينى من هذا السوء خطراً على هذا الحب الذى أريد أن أحوطه وأصونه وأحميه من الموت . لقد هممت بهذه المصارحة فى تلك الليلة التى جعلت تناقش فيها صديقك فيليب فيما ينبغى من احترام الأوضاع الاجتماعية ، لقد كنت لبقاً قوىّ الحجة فى ذلك الجدال ، ولكن صديقك قد أفحمك واضطرك إلى الصمت ، واضطرنى أنا إلى أن أترك غرفة الاستقبال حيناً لأكظم حزناً كاد ينفجر وأكفكف دموعاً كادت تنهل ، وأستعير من الصبر والجلد وقوة الإرادة وجهاً مشرقاً يمكن إظهاره لأضيافنا . كنت تقول لصديقك إن الخير فى ألا يستطيع

أحد أن يباديك من أمرك بما يخجلك فأجابك خير من ذلك ألا تبادى أنت نفسك بما يخجلها ، فصدمتك هذه الجملة واضطرب لها لسانك واحمر لها وجهك شيئًا ، واضطررت أنا إلى أن أتحول عنكما حتى لا يظهر من أمرى مثل ما ظهر من أمرك .

أنت إذن عاجز عن أن تبلغ بنفسك هذا الطور ، وأنت إذن تعرف من أمر نفسك ما لا تستطيع أن تباديها به لأنه يخجلها . فلو عرفت أن غيرك يستطيع أن يباديها بهذا المخجل ، ولو عرفت أنى أستطيع أن أقص عليك قصتك كلها مع صديقتنا لورنس . فماذا أنت صانع ؟

١٢

ربما كان ابننا هذا العزيز البرىء مصدر هذه الآلام التى تملأ قلبى ، وهذه الشقاء الذى يغمر نفسى ، وهذا اليأس الذى أحاول أن أخفيه فلا أكاد أظفر من ذلك بما أريد إلا مع الجهد العنيف الذى احتملته إلى الآن ، والذى لا أدرى أأستطيع أن أمضى فى احتماله والصبر عليه . وكم يؤذينى ويضنينى ويمزق نفسى البائسة أن أقرن ابنى هذا العزيز البرىء إلى ما أحس من ألم ، وما أجد من شقاء ، وما أتعرض له من يأس ، على حين أنه قرة عينى ونعمة بالى ومصدر سعادتى ، والقيمة لحياتى منذ عرفت نفسى إلى أن عرفته ، والغاية الصحيحة لحياتى منذ عرفته إلى الوقت الذى لا أقدر له فيه على شىء ، ولكن الشجاعة إنما هى مواجهة الحق كما هو ، والاعتراف بالواقع كما وقع ، وأمور الحياة كلها متناقضة على هذا النحو ؛ فيها الخير والشر ، وفيها النعيم والبؤس وعنها تصدر السعادة ويصدر الشقاء . فلو أنى خيرت بين ابنى هذا العزيز البرىء وبين أى لون من ألوان السعادة لما ترددت فى الاختيار ، فهو حياتى بل هو آثر إلىّ من حياتى ، ولكنه مع هذا كله كان مصدر ما أحس من ألم وما أجد من شقاء .

كنت قبل مقدمه فارغة لزوجى مشغولة به مصروفة إليه موقوفة الجهد على حبه وإمتاعه بهذا الحب . وكان هو قبل مقدم هذا الصبى يحبنى كما تعود الأزواج العشاق أن يحبوا نساءهم ، يمنحنى خلاصة نفسه وصفوة ضميره ، ولكنه لا يمنحنى نفسه كلها ولا ضميره كله كما كنت أمنحه نفسى كلها وضميرى كله . كان يصرف عنى بين حين وحين إلى أعمال الحياة وأعراضها ، وإلى أسباب العيش وشواغله . ومن الحق أنه كان يضطرب فى هذا كله مفكراً فىّ ، محبّاً لى ، مؤثراً لى بخير ما يستطيع أن يؤثرنى به من الحب والإخلاص ، ولكنه كان على كل حال يضطرب فى الحياة ويعنى بأعراضها وأسبابها ويصرف عنى بعض الشىء فى أثناء ذلك ولم أكن أنا أفكر إلا فيه ، ولم أكن أعيش إلا له ، بل لم أكن أعيش إلا به ، فكان حبى يحوطه وكان حبى يغمره ، وكان حبى يأخذ عليه كل سبيل ، وكان حبى يشتد حتى يثقل عليه أحياناً ، وكنت أحس هذا وآلم له وألوم نفسى عليه وأرفه على صديقى فأعفيه من بعض ما كان يدفعنى إليه الحب الجامح من الكلف والهيام ومن البر والحنان . ولكن ابننا، هذا العزيز البرىء ، أقبل ذات يوم فسعدنا بمقدمه وما زلنا سعيدين ، ونعمنا بتنشئته وما زلنا ناعمين ، ونشأت بيننا صلة جديدة هو قوامها ، وشغلت أنا بهذا الصبى شيئاً وأصبحت لى فى الحياة غاية جديدة لم تكن لى من قبل . والله يشهد ما أضعفت هذه الغاية من حبى ، ولا

خففت من وجدى ، ولا صرفت قلبي عن زوجى قليلاً ولا كثيراً ، فإن لقلوب النساء سعة لا تعرفها قلوب الرجال فهى تستطيع أن تحب الولد إلى أقصى غاية الحب ، وأن تحب الزوج إلى أقصى غاية الحب ؛ وهى تستطيع أن تجمع بين هذين النوعين من الحب ، وأن تلائم بينهما وأن تخلص فيهما دون تهاون أو تقصير .

هى أوسع من الزمان ، وهى أوسع من المكان ، وهى أوسع من هذه الجهود المادية التى يبذلها الناس فى الزمان والمكان ، هى تسع حب الزوج وحب الولد ، ولكن الزمان لا يستطيع أن يسعهما فى حيز واحد ، أو نحن لا نستطيع أن نؤدى حقوق الزوج ، ولا حقوق الولد معاً ، فى لحظة واحدة وفى حيز واحد وفى جهد واحد .

فنحن إذا فرغنا للصبى وعنينا به صرفنا عن الزوج ، ونحن إذا فرغنا للزوج وعنينا به صرفنا عن الولد . والرجال أثرون لا يحتملون التقصير ، ولا يصبرون على التفريط ، وهم بعد هذا قلقون لا يرضون عن شىء ، ولا يطمئنون إلى شىء وهم بعد هذا وذاك جشعون ليس لهم حظ من قناعة ، فهما نعطهم فنحن دون ما يطلبون . وكذلك أخذت من الوقت الذى كنت أفرغ فيه لزوجى ما منحته للصبى ، ولم يضق زوجى بذلك فى ظاهر الأمر ولا خفيه ، وإنما رآه حقاً وملائماً لطبيعة الأشياء ، وملائماً كذلك لما كان يملأ قلبه من حب الصبى ، ولكنه على كل حال قد وجد من الوقت فراغاً لم أكن أشغله ،

ووجد حرية لم يكن يجدها ، واستطاع أن يخلو إلى نفسه وأن يتصرف في وقته ، وأن يشغل بغيري حين كنت أنا أشغل بالصبي ، وكذلك هيئت له أسباب لم تكن مهيأة له من قبل ، وكذلك أحس فراغاً فأراد أن يملأه ، وكذلك انتهت به الحياة شيئاً فشيئاً إلى ما لم يكن يريد ، وإلى ما لم أكن أقدر أنه سينتهي إليه .

وكانت لورانس إلفاً لنا قد رفع بينها وبيننا الحجاب ، وزالت بينها وبيننا الكلفة ، تزورنا في كل وقت ونزورها في كل لحظة ، ونلتقي على العلات لا نضرب للقاء موعداً ولا نهيء له أسباباً . كانت فارغة مثرية وكانت جميلة رائعة الجمال ، ردت الحرب إليها زوجها مريضاً قد أثقلته العلة . وقامت على تمريضه والعناية به جادة في ذلك كل الجد ، مخلصة له كل الإخلاص ، ولكن العلة كانت أقوى من جدها ، وأنفذ من إخلاصها ، فقضى ذلك الشاب المسكين شهيداً من شهداء الحرب ، وما أكثر هؤلاء الشهداء الذين عادوا إلى أوطانهم يحملون الموت في ناحية من حياتهم ، يجاهدونه ويجاهدهم فقليل منهم يطول به الجهاد فيحيا حياة قد استأثر الموت بأعظمها ، وكثير منهم يصرعون فيفارقون هذه الدنيا وفي نفوسهم من الآلام والحسرات ما لا سبيل إلى وصفه . آلام الأمل الذي ينقطع وقد كان خليقاً أن يتصل ؛ وآلام الرجاء الذي ينبت وقد كان حرياً أن يدوم ، وحسرات الشهيد الذي كان خليقاً أن يتجرع

لذة الشهادة وشرفها فى ميدان القتال فإذا هو يموت فى فراشه ، حزيناً كئيباً بعد أن صارع الموت ألف مرة ومرة .

وقد احتملت لورنس خطبها جلدة ، وصبرت عليه عزيزة النفس عميقة الحزن ، وصرفت عن الحياة ولذاتها أعواماً ، ولكن فى شىء مؤثر حقاً من الاحتفاظ بالكرامة ، والاعتداد بالنفس ، وادخار الحزن لخلوتها حين لا ترى أحداً ، ولا يراها أحد . وكنا نجد ذلك منها ، فنعجب به ونعجب له ، ونرفق بها أشد الرفق ، ونكبرها أعظم الإكبار ، ونصرف ما نبذل من جهد لنصرفها عن هذه الخلوة التى كان الحزن ينتظرها فيها ، ومن هنا كثر اتصالنا بها واشتد اتصالها بنا . فقلما كان يمضى يوم لا أراها فيه مصبحة وممسية ، وقلما كنا نخرج لرياضة لا تشاركنا فيها . كانت ثالثتنا إن خرجنا منفردين ، وكانت واحدة منا أن خرجنا فى جمع من الأصحاب والأصدقاء .

وما خطر لى قط وما خطر لها وما خطر لمكسيم أن هذا الصفو الجميل يمكن أن تشوبه شائبة ، أو تعدو عليه عادية ، ويكدره خاطر سوء . ومع ذلك فقد كان جمالها خليقاً أن يفتن ويروع ، ولكنها كانت واثقة بنفسها ، مشغولة بحزنها لا تتعزى عنه إلا فى ظاهر الأمر ، وكان مكسيم واثقاً بنفسه مشغولا بحبه وأعماله منصرفاً إليهما عن كل شىء وعن كل إنسان . وكنت أنا مطمئنة إلى الصداقة والحب ، حتى تكشفت لى الأيام عما تكشفت عنه ،

وإذا الحياة كلها غرور ، وإذا الضعف الإنسانى أقوى من كل عاطفة ، إن صح أن يوصف الضعف بالقوة ، فهو الذى يسيطر على حياتنا ويدبر أمورنا ويسخرنا لغرائزنا ويصرفنا كما تريد لا كما نريد .

ولا بد من أن أصدقك الحديث ، أيها الصديق العزيز ، ومن أن أصور لك الأمر كما كان ، ومن أن أشهد بين يديك بأن صديقتنا لورنس قد وفت لنفسها ، ووفت لزوجها الشهيد ، ووفت لحزنها المتصل ولصديقها الوفية . فلم تشارك فى اثم ولم تغر به ، ولم تدع إليه ، وإنما اضطرت إلى المقاومة ، وإلى المقاومة الطويلة المتصلة ، وكانت البائسة تجاهد الحزن والثكل ، فاضطرت إلى أن تجاهد هذا الحب الذى طرأ عليها فأفسد أمرها ونغص حياتها تنغيصاً . لا ألوم أحداً ولا أتجنى على أحد ، فإن أمور الحب لا تخضع للإرادة ولا يستطيع العقل أن ينظمها ويدبرها ، وإنما هى خطوب تطرأ فيستجيب لها من يستجيب ، ويعنو لها من يعنو ، ويمتنع عليها من يمتنع . ويختلف ذلك باختلاف طبائع الناس وحظوظهم من القوة والضعف ، ومن الشدة على نفوسهم واللين لها .

وما أرتاب فى أن مكسيم قد كان طاهر القلب صافى النفس فيما كان بينه وبين صديقتنا من صلة أول الأمر ، ولكن إعجابنا وعطفنا عليها قد أخذا فيما أظن يتحولان قليلا قليلا فى نفسه إلى شىء من الحنان ، كان يجد راحة إليه و كان يمعن فيه شيئاً فشيئاً . وقد

كان ارتفاع الحجاب وزوال الكلفة وما كنا فيه من حياة بسيطة يسيرة طلقة خليقًا أن يضاعف هذا الحنان ، وأن ينحرف به شيئًا عن طريقه الأولى إلى طريق أخرى . وما أرتاب فى أن مكسيم قد أنكر ذلك حين أحسه وقد جد فى مقاومته ، ولكن غرائز نفسه كانت أقوى من عقله ، وظروف الحياة كانت أدعى له إلى الضعف وأحرى أن تورطه فيه . فهأنا هذه أصرف عن زوجى بعض الشىء بالحمل وأعراضه ، ثم بمقدم الصبى وتنشيئه ، والزيارات بيننا وبين لورنس متصلة تسعى إلينا إذا لم نسع إليها . وما أكثر ما حال ثقل الحمل وعنايتى بالصبى بينى وبين الخروج للرياضة . وما أكثر ما كنت ألح على زوجى وصديقى فى أن يخرجا منفردين ، ومع الأصحاب والأصدقاء . وما أكثر ما كانت تزورنا لورنس فأصرف عنها إلى بعض شأنى ، أو يضطرنى المرض إلى الانفراد فى غرفتى ، ويتاح لها من لقاء مكسيم والحديث إليه منفردًا ما لم يكن يتاح لها من قبل . وما خطرلى قط أن ذلك قد يتعرض لريبة ، أو يدعو إلى شبهة ، أو يثير بين الصديقين عاطفة سوء ، وما لاحظت قط فى حياة مكسيم أو حياة لورنس شيئًا جديدًا يدعو إلى التفكير ، أو يثير فى نفسى من سوء الظن قليلا أو كثيرًا . ولكنى صدمت بذلك فجأة وعلى غير تقدير . وما أدرى كيف احتملت الصدمة ؟ وما أدرى كيف ثبت لها ؟ وما أدرى كيف أخفيت آثارها فى نفسى على الناس جميعًا

وعلى مكسيم قبل الناس جميعاً ؟

لا تسخر منى ، أيها الدفتر العزيز ، حين أثنى على نفسى ، وحين أحمد هذه الشجاعة النادرة التى تلقيت بها هذا الخطب العظيم ، فقد تلقيت النبأ فانحطم له قلبى ، واندكت له آمالى كلها ، ومع ذلك لم أظهر من هذا شيئاً . تلقيت النبأ وكان ابنى هذا العزيز البرىء ، هو الذى حمله إلىّ فى بعض عبثه . ولست أدرى كيف انسل إلى مكتب أبيه ، ولست أدرى كيف خلص إلى بعض ما كان فيه من أوراق ، ولست أدرى كيف استخلص منها هذا الكتاب الذى حمله إلىّ فرحاً مبتهجاً ، وظافراً منتصراً ، كأنه الجندى يحمل بعض الأسلاب إلى قائده مبتهجاً فخوراً .

١٣

تلقيت الكتاب من يد بيير مبتسمة مشفقة ، مبتسمة لعبث الصبي ومرحه ودعابته ، ومشفقة أن يكون لهذه الصحف التى يحملها إلى بعض الخطر ، وأن يكون قد أفسد النظام فى مكتب أبيه ، وهو حريص أشد الحرص على أن يكون النظام فى مكتبه دقيقاً ، وعلى أن تترك الأشياء فيه كما وضعها هو ، لا يحول منها شىء عن موضعه ، يغلو فى هذا الحرص حتى يوشك أن يكون علة من علل نفسه ، وحتى يؤذيه أن يدخل أحد مكتبه فى غيبته أو يمس منه شيئاً . ولقد هممت غير مرة أن أرتب له مكتبه على نحو كنت أراه ملائماً جميلاً ، فردنى عن ذلك رداً لم يخل من عنف ، ولعله ترك فى نفسى آثاراً لم أكن أحبها حتى انتهى الأمر بيننا إلى اتفاق صامت على أن كل ما فى البيت طوع يدى ورهن أمرى أناله بما شئت من تغيير وتبديل إلا هذه الغرفة ، فإنها حرام ما ينبغى لى أن أمسها ، أو أن أغير من نظامها شيئاً ، فلما وقعت فى يدى هذه الصحف تلقيتها مشفقة مذعورة ، ثم نظرت فيها فرأيت ، ويا هول ما رأيت ! وكنت خليقة أن أفقد الصواب ، وأن أخرج عن طور الرشد ، وكنت خليقة أن أجد الدوار وأن أسفح الدمع ،

وكنت خليقة أن أتعرض لأزمة من هذه الأزمات العنيفة الحادة التى تتعرض لها المرأة حين تهان فى حبها ؛ وحين تخيب آمالها وحين تظهر لها الخيانة ماثلة ، وقد كانت ترى نفسها بمأمن من الشك والريب . ولكنى رأيت بعض جمل الكتاب فقرأته مستقصية ؛ ونهضت بعد قراءته هادئة النفس مستقرة القلب ، فسعيت إلى مكتب زوجى ورأيت درجاً من أدراجه قد فتح شيئاً ، فعرفت أن يد الصبي قد امتدت إليه فأخرجت ما كان فيه من أوراق ، ونثرتها فى أرض الغرفة نثراً ، ثم صنعت بغيره هذا الصنع ، ثم ألقيت الكتاب الذى حمله الصبى إلىّ بين هذه الأوراق المنثورة ، ثم خرجت فأغلقت الغرفة وأخذت مفتاحها ثم آويت إلى غرفتى وأغلقت بابها من دونى ، ثم انتظرت الأزمة ولكنها لم تأت ، ثم دعوت الأزمة ولكنها لم تستجب ، وإنما انحدرت من عينى دموع يسيرة جداً لم ألبث أن جففتها ، وظللت فى غرفتى هادئة واجمة بعض الشىء محزونة أشد الحزن وأمضه ، عاجزة كل العجز عن أن أجد من هياج الأعصاب ، أو انهمال الدمع ما يخفف وطأة هذا الحزن على هذا القلب الكسير . فلما استيأست من ذلك نهضت متثاقلة ، وخرجت من الغرفة فلقيت الصبى فى بعض عبثه فأخذت بيده وهبطت به إلى الحديقة ، وجعلت ألاعبه وأداعبه . وأقبل مكسيم بعد ساعة ، فتلقيته ساخطة صاخبة ألومه أعنف اللوم ، لأنه يحرص على النظام فى مكتبه ،

ثم لا يحتاط لهذا النظام فيترك بابه مفتوحاً ، ويعرض مكتبه بذلك لعبث الخادم ، ولعبث هذا الصبي العفريت خاصة .

ثم أزعم له أن الصبي قد انسل إلى مكتبه ، فأحدث فيه فساداً عظيماً وأنه سيجد مشقة في رده إلى ما يحب ويألف من النظام ، وهو خليق بهذه المشقة ، فلعلها تعلمه أن يأخذ مفتاح مكتبه معه منذ اليوم . ثم أدفع إليه مفتاحه فيتلقاه هادئاً مبتسماً ، ويرفع الصبي بين ذراعيه مبتهجاً ، فيقبله ويهنئه ، أو يهنىء نفسه بهذا الطور الجديد من حياة ابنه الذى أصبح قادراً على أن ينسل إلى الغرف ، ويفسد ما فيها من نظام . ثم يصعد متثاقلاً إلى مكتبه فيلقى عليه نظرة ثم يعود مغرقاً في ضحك متصل ، وهو يقول إن إصلاح هذا الفساد أطول من أن آخذ فيه قبل الغداء .

ثم تمضى أمور الدار على ما تعودت أن تمضى عليه كأن لم يحدث شيء . ولكن في الدار قلباً محطماً قد ذاق خيبة الأمل وعرف مرارة اليأس ، ولن يبرأ من هذه العلة التي مزقته تمزيقاً .

١٤

ولكنى لم أحدثك بشىء من هذا الكتاب ، أيها الدفتر العزيز . وما أشد أسفى لأنى لم أحفظه عن ظهر قلب ، أو لم أتخذ منه نسخة أعاود النظر فيها بين حين وحين . فهو خليق أن يحفظ وأن يسجل ، لأنه يصور الضعف والقوة معًا ، كأقصى ما يكون الضعف وكأقصى ما تكون القوة ، ولأنه يصور الوفاء للصديق والاستسلام للحب ، والصراع العنيف بين هذا الاستسلام وذلك الوفاء ، والانتهاء إلى اليأس من المقاومة والفرار آخر الأمر إلى حيث يمكن الانفراد مع الحزن اللاذع والألم الممض ، وإلى حيث يمكن الانتظار لروح الله الذى قد يريح من آلام الحياة بما يفيض من السلوى والعزاء ، وقد يريح من الحياة نفسها إذا لم تكن سبيل إلى السلوى والعزاء .

كل هذا كان مصورًا فى ذلك الكتاب تصويرًا يسيرًا ساذجًا ، لا تصنع فيه ولا تكلف ، حتى لقد كان يخيل إلى أن هذه الصديق المسكينة إنما أفاضت فيه نفسها البائسة ، وأودعته قلبها الكئيب . وكانت لورنس قد ودعتنا منذ أيام ، وزعمت لنا أنها مسافرة إلى باريس لتنفق فيها أسابيع ، ثم عائدة إلينا بعد ذلك وقد جددت العهد بالعاصمة وما فيها ومن فيها ، مما تحب من المعالم ، ومن تألف من

الأصدقاء . وكنت قد أنكرت هذا السفر وضقت به ، ورأيت أنها تقدم عليه فى غير إبانة ، ولكنى رأيت منها إلحاحًا فيه وتصميمًا عليه ، ولم أجد إلى صرفها عنه سبيلاً فودعتها كارهة واستكتبتها وجعلت أنتظر كتبها دون أن أتلقى منها شيئًا حتى قرأت هذا الكتاب ، فعرفت منه أنها لم ترحل إلى باريس ، وإنما خدعتنا عن نفسها ، وعبرت البحر إلى حيث لا ندرى من الشرق الأدنى ، أو من الشرق البعيد ، وأنها لن تعود إلا حين تستيقن بقدرتها على العودة ، وعلى أن تعيش معنا كما كانت تعيش منذ حين ، نقية القلب والنفس والضمير ، قادرة على الوفاء لصديقها بما ينبغى من الود الخالص الذى لا إثم فيه ولا ريب .

وجدت فى هذا الكتاب قصة نفسين قد لقيتا من قوة الإرادة وضعف الغريزة أشد العذاب . وكانت نفس لورنس أقواهما وأمضاهما وأشدهما احتمالا وأقدرهما على المقاومة . فهى قد أحست عطف مكسيم عليها ورعايته لها ، ثم أحست تحول هذا العطف والرعاية إلى شىء من الحب والحنان ، ثم أحست قوة هذا الحب وشدة هذا الحنان فتلقت هذا كله لقاء حسنًا نقيًّا . ولكن حب مكسيم ألح عليها وجعل يتتبعها ويقفو آثارها ، ثم جعل يمسها مسًّا رفيقًا ثم جعل يحيط بها ويغمرها ، وهى تقاومه وتدافعه وتحاول النجاة منه كما يحاول الغريق أن ينجو من الماء الذى يطغى عليه ، وقد نجحت مقاومتها مرة ومرة ،

وأفلتت من شباك الحب تلك التي كان ينصبها لها مكسيم ، وكانت تنصبها هي لنفسها ؛ ولكن مكسيم غلا في الإلحاح ، وأسرف في التتبع . وظهر من أمرها على ما كانت تخفى ؛ واستيقن أنها تلقى حبه بحب مثله ، وأن نقاء الضمير وحده هو الذي يحول بينها وبين الاستجابة له . والانقياد لهواه فاضطهدها مصبحاً واضطهدها ممسياً ، واضطهدها حين كانت تزورنا ، وجعل يزورها حين كانت تقعد عن زيارتنا ، وتنتحل لذلك ما كانت تنتحل من معاذير . وكانت المسكينة ترى هذا الإلحاح العنيف ، وتجد في نفسها إلحاحاً مثله ؛ وكانت ترى مكسيم يدفع إليها دفعاً وترى نفسها تدفع إليه دفعاً . ولكن صورتين اثنتين كانتا تنتظرانها دائماً عند الهوة ؛ فتردانها عنها وتعصمانها من السقوط .

فأما إحدى هاتين الصورتين فكانت مخيفة منذرة ؛ تبعث الخوف وترسل النذير في صمت مزعج رهيب ، وهي صورة زوجها الفقيد الشهيد الذي وفى لها في حياته ، وشقى بالدفاع عنها أثناء الحرب ومات في سبيل هذا الدفاع . وأما الصورة الأخرى فكانت مشجعة في حزن ، ومتوسلة في ابتسام وهي صورة صديقها مدلين ، تحمل بين يديها ابنها بيير ، تبسم له وتبسم لها وتنظر إلى مكسيم نظرة فيها تساؤل واستغراب !

كانت المسكينة كلما بلغت الهوة وأوشكت أن تسقط بين ذراعي مكسيم رأت هاتين الصورتين تكتنفانها فارتدت فزعة مذعورة ، ثم

كانت المسكينة تخلو إلى نفسها بعد ذلك فتلقى من الحب العنيف ومن الوفاء العنيف . تلقى من الغرائز الضعيفه والإرادة القوية عذاباً ينغص عليها الحياة تنغيصاً ، حتى أنكرت نفسها وأشفقت أن يلم بها طارق من جنون .

هنالك لم تر المسكينة بداً من أن تفر منا جميعاً إلى حيث لا ترى هذا الحب الآثم الذى لا تكاد تفلت منه ، وإلى حيث لا ترى هذا الزوج الشهيد مخوفاً منذراً ، وإلى حيث لا ترى هذه الصديق الوفية باسمة منكرة متسائلة ، وبين ذراعيها طفلها هذا الوادع البرىء .

إن فى الرحلة إلى الشرق ، والنظر إلى ما فيه ومن فيه لعزاء عن مثل هذا الحزن الملح والألم المقيم والعذاب المتصل ؛ إن كانت إلى العزاء عن ذلك سبيل . فإن لم أجد العزاء فسأجد من بعد الشقة بينك وبينى أيها الحبيب البغيض ، ما يعصمك ويعصمنى من هذا الخزى الذى إن كنت تطيقه الآن فستضيق به غداً ، والذى لا أستطيع أن أرى نفسى متورطة فيه .

وداعاً أيها الحبيب إلىّ وإن كنت أبغض حبك وأضيق به .

وداعاً أيتها الصديق البائسة الأمينة . لن أراكما ولن أرى طفلكما حتى استيقن بأنى أصبحت لرؤيتكم أهلاً .

وداعاً ، وإن كان فى الحياة ما يعزينى ويسلينى فهو أنى هممت بالإثم ولم أتورط فيه ، وكدت أخونك يا مدلين ولكنى آثرت اتصال

العذاب والحرمان والغربة على أن أنظر إليك فأستحى منك ، وعلى أن يكون فى قلبي شيء لا تستطيعين أن تظهرى عليه .

بذلك ختمت المسكينة كتابها وقد استقرت كلماتها هذه فى نفسى كأنما نقشت فى قلبي نقشاً .

أين أنت الآن يا لورنس ! كم أحب أن ألقاك وأن أضمك إلى ؛ وأن نمزج دموعنا التى تصور ما يملأ نفسينا من اليأس والحب والوفاء معاً ؟

١٥

أقبل الصبي فرحـًا كالمرتاع ، يكلف ساقيه الضعيفتين من العدو فوق ما تطيقان ، ويدير فى فمه الصغير لسانـًا لا يكاد ينطق بهذه الألفاظ : « أماه أماه انظرى هذه السيارة » ولم أستطع أن أقاومه ولا أن أمتنع عليه ، حين أخذت يده الصغيرة بيدى الكبيرة تجرنى إلى حيث أرى ما كان يريد أن يظهرنى عليه . ولو استطعت لأعرضت عنه وعن سيارته التى كان يريد أن يظهرنى عليها ، ولمضيت فيما كنت فيه من القراءة ، لأنى كنت مشغوفة بما كنت أقرأ ، ولأن ألفاظه وقعت من نفسى موقع النذير . فقد عرفت السيارة حين ذكرها وعرفت من فيها ، فلما رأيتها ورأيت من كان فيها لم أزدد علمـًا ، ولم أعرف جديدًا .

وما من شك فى أن قلبى قد خفق لألفاظ الصبى ، ولكن الشيء الذى هو موضع الشك والريب والتردد الشديد هو تفسير هذه الخفقات التى اضطرب بها قلبى ، أكانت خفقات بالرضى والغبطة أم كانت خفقات بالغضب والضيق ؟ فقد كانت السيارة سيارتنا ، وكان الذى يقودها مكسيم ، وكان فراقنا قد طال أمده شيئـًا ، وإن لم تنقطع بيننا الرسائل ، ولم يعرف منى حين ودعته ولا حين كنت

أكتب إليه أنى كنت مغاضبة له أو واجدة عليه . ولكنى فى حقيقة الأمر كنت غاضبة بل أكثر من غاضبة وكنت واجدة بل أكثر من واجدة . كنت محطمة القلب خائبة الأمل ، ملتاعة النفس محزونة الضمير . وكنت أدافع نفسى أشد الدفاع عن مصارحة زوجى بهذا كله أو بعضه أريد أن أثأر للكرامة التى أهينت ، والحرمة التى انتهكت والحب الذى أضيع ، وأخشى أن فعلت إن يكون الفساد الذى لا سبيل إلى إصلاحه والصدع الذى لا سبيل إلى رأبه . ثم طال هذا التردد ، وطال حتى تغلب العقل ، أو تغلبت العاطفة أو اتفق العقل والعاطفة : فأغمضت عينى على القذى ، وطويت قلبى على ألمه واحتفظت لنفسى ، ولك أيها الدفتر العزيز بهذا السر الأليم . فلم يعلم زوجى أنى قد ظهرت على إمره ، وأنى قد تأثرت منه بقليل أو كثير ، وفى سبيل الحب ما تكلفت فى ذلك من عناء ، وفى سبيل الحب أيضًا ما أرقت فى ذلك من ليل طويل ، وأعنف نفسى أشد التعنيف وأصفها بالجبن مرة ، وبالضعة والذلة مرة أخرى .

فى سبيل الحب هذا كله ، فإن هذه المحنة القاسية لم تتكشف لى إلا عن شىء واحد هو أنى أحب مكسيم إلى أبعد ما يمكن أن ينتهى إليه الحب ، وأحتمل فى سبيله أقسى ما يمكن أن تحتمل المرأة من مشقة وجهد وتضحية . ظهرت على خيانته فلم أحس ثورة جامحة وإنما أحسست ألمًا لاذعًا ، وتبينت إثمه فلم تتحدث إلى

نفسى بالقطيعة وإنما تحدثت إلىّ بالفرار إلى حيث أستريح وأستجم ، ثم أستأنف الجهاد لاكتساب هذا القلب الذى أخذ يفلت منى ويهيم بغيرى .

وكنت أثناء هذه الأسابيع التى خلوت فيها إلى أبوى ، وإليك أيها الدفتر العزيز ، أغالب الشوق إلى مكسيم فأغلبه حيناً ، ويغلبنى حيناً ، وأغالب الغضب على مكسيم فيقهرنى حيناً وأقهره حيناً . ولولا أنى وجدت منهما ومنك ، ومن القراءة ، ومن هذه الطبيعة المشرقة الباسمة المتألقة ، ما كان يشغلنى عن نفسى ويصرفنى عما كان يتنازعنى من العواطف والأهواء ، لانتهى بى الأمر إلى ما لا أحب . ولكنى تمالكت حتى كان هذا اليوم الذى أقبل فيه الصبى ينبئنى بمقدم السيارة فأحسست هذا التردد بين الابتهاج والابتئاس ، وبين الرضى والسخط ، ثم نهضت مع الصبى فماشيته إلى حيث أراد ، وإلى حيث ألقى نفسه بين ذراعى أبيه ، وقد أخرجه الفرح عن طوره ، وإلى حيث استقبلت أنا مكسيم بابتسام فاتر ، ونشاط متكلف ، وشهد الله لقد تصنعت هذا الفتور وتعلمت هذا التكلف ، ولو أرسلت نفسى على سجيتها وأطعت غريزتى لألقيت نفسى بين ذراعى زوجى ضاحكة باكية ، ومغرقة فى الحزن والفرح معاً . ولكنى تكلفت الأناة والوقار ونجحت فيما تكلفت ، فأرسلت إلى نفس مكسيم شيئاً من الفتور وخيبة الأمل .

قبلته متثاقلة فقبلنى متثاقلاً ، واتصلت بيننا لحظات صامتة لم نعرف فيها كيف نقول ، ثم قطع الصمت بصوت متهدج مضطرب وهو يقول فى ألفاظ متقطعة شيئاً : لقد كنت أظن أن مقدمى سيشيع فى نفسك من السرور أكثر مما رأيت ! !

فلم أعرف كيف أجيبه ولكننى انحنيت إليه فقبلته فى رفق ، وقلت له فى حنان : هلم نسلم على أبوىّ فإنهما من غير شك قد أحسا مقدمك .

١٦

ولم يطل مقام مكسيم فى بيت أبوى ، ولم أستطع أن أتخلف عنه ، لأنى خشيت إن فعلت أن يظهر أبواى على أن بيننا شيئاً . وكنت أكره ما أكون لإظهارهما على هذه الكارثة ، ولعلى لا أصدق إن زعمت أن هذا وحده هو الذى منعنى من التخلف عن مكسيم ، وما تعودت أن أكذبك أيها الدفتر العزيز ، ولا أن أستحى منك ، فلأقل الحق ، ولأسجل مستخذية منك ، ومن نفسى ، أنى رجعت مع مكسيم ، مستسلمة لحبه مذعنة لسلطانه ، عائدة إلى طاعته متجافية عن خيانته ، وإن كنت لم أنسها ولم أعف عنها فى قرارة نفسى . ولكنى اتخذت لها من قلبى زاوية أقررتها فيها ، وألقيت بينى وبينها ستاراً ، واستجبت لدعاء الحب ، فألقيت نفسى فى ناره المضطرمة ، ووجدت فى الاحتراق بهذا الجحيم نعيماً أى نعيم ! ! وقد أنسى أشياء كثيرة قبل أن أنسى عودتنا إلى المدينة ، فى ضحى ذلك اليوم الذى أشرقت فيه الشمس ، وصفت فيه السماء ، ورق فيه الجو وخف فيه الهواء ، وظهرت فيه الطبيعة هادئة باسمة ، تستقبل حياة هادئة باسمة ، وتغرى الناس بأن يأخذوا بحظوظهم من الهدوء والابتسام ، وقد استجبنا لهذا الدعاء ، وخضعنا لهذا الإغراء ، وظهر على وجهينا هدوء مطمئن ، وابتسام

يصور الرضى ، وميل إلى الدعة واستسلام إلى الأمن ، وانصراف عن الجهد . وقد أسلم مكسيم قياد السيارة إلى السائق ، وآثر السكون والهدوء ، وجلس إلى جانبي ينظر إليّ فى وداعة وحنان ، وأنظر إليه فى رفق وعطف . والصبي أمامنا منطلق فى أحاديث لا نفهم إلا أقلها ، قد انصرفنا عنه إلى أنفسنا ، وقد ألقيت رأسى على كتف مكسيم وجعلت أنعم بهذه الساعة الحلوة ، وإذا دموع تنحدر من عينى ، لا أدرى لماذا انحدرت . فلم أكن فى حاجة إلى البكاء ، ولم أشعر بدافع إليه ، ولكن هذه الدموع انحدرت فى صمت ، ولم يسألنى عنها مكسيم . وإنما مسحها فى رفق ، وضمنى إليه ضمًّا خفيفًا . ثم مال إليّ فقبلنى فى هدوء ودعة ، لم يقل شيئًا ولم أقل شيئًا ، وإنما لبثت كما كنت ، وظل كما كان ، حتى أشرفت بنا السيارة على المدينة ، ونبهنا الصبي إلى مكاننا منها بما كان يدلنا عليه من المعالم والعمارات ، فاعتدلت فى مجلسى واستقبلت المدينة والحياة فيها استقبال الجد والطمأنينة والإذعان .

ولقد استأنفت حياة جديدة فيها حب شديد النشاط . وكلف بعيد الأثر فى النفس يوشك أن يكون هيامًا . وفيها ترقب لكل ما يصدر عن مكسيم من لفظ وحركة ، وما يضطرب على وجهه من المظاهر ، وفيها تفهم لنبرات الصوت وخلجات العين . وما أكثر ما كنت ألوم نفسى على ذلك ، وأحذرها الإسراف فى تتبع مكسيم . ومضايقته بهذا الحب

الملح ، وإغراقه بهذا السيل الجارف من العواطف . فقد يؤذيه ذلك وقد يحرجه وقد يغيظه وقد يخرجه عن طوره. وكنت أنجح أحياناً فأخفف من هذا الإلحاح ، وأقلل من هذا التتبع ، وأظهر كأنى معرضة عنه بعض الإعراض . ولكنه كان يلحظ ذلك فى سرعة وينبهنى إليه فى خفة ؛ ويظهر الألم لإعراضى عنه والتبرم بتقصيرى فى ذاته ، فأعود إلى أكثر مما كنت فيه من عناية ورعاية ؛ ومن ترقب وتتبع ، وينعم هو بهذا الحب الملح وبهذا السيل الجارف الذى يندفع . فلا يكاد يبقى على شيء . وكان يقول لى إنه يجد اللذة كل اللذة والنعيم كل النعيم فى أن يغمره هذا الحب حتى يغرقه ، وأحب شيء إليه أن يؤذيه الحب ، وأن يشق عليه وأن يعذبه فى جسمه ونفسه ، وكنت أسأل نفسى عن مصدر هذا الهيام الطارئ والشغف الجديد ، فلا أجد لسؤالى جواباً . وربما عللت ذلك بما كان من افتراقنا أسابيع ، وربما أعدت على نفسى ما قرأت فى غير كتاب : إن من الخير للعاشقين أن يفترقا بين حين وحين ، ذلك أجدى على حبهما وأحرى أن يجدد منه ما بلى ويقوى منه ما ضعف . ولكننا لم نفترق لأول مرة وقد افترقنا فى العام الماضى والعام الذى قبله ، فلم نجد من الحب والكلف والهيام مثل ما نجد الآن .

أف للشيطان ! ! إنه لقريب من الإنسان دائماً ، وإنه لنافذ البصيرة قوى الحجة بالغ الأثر فى النفوس . ها هو ذا يدنو منى خفيفاً

متلطفاً ، قبيح المنظر مع ذلك سمج المحضر . ويقول لى فى غير صوت مسموع ، ولا لفظ مبين ، لا تعجلى بالرضى ولا تسرعى إلى الأمن ، ولا تنسى أنك مدينة بهذه النعمة لصديق غائبة تطوف فى الشرق القريب أو الشرق البعيد . اذكرى لورنس فهى التى سافرت ، فأخلت لك قلب زوجك الضعيف ، ولو أنها بقيت ، ولو أنها عادت ، لكان لك شأن غير هذا الشأن ، ولاضطربت فى قلبك عواطف غير العواطف التى تضطرب فيه .

ثم ينصرف الشيطان خفيفاً متلطفاً وقد ترك أمامى فى الهواء صورة لورنس يشيع فى وجهها ابتسام غريب .

واحسرتاه ! ! أحق هذا ؟ أحق أنى مدينة بهذه السعادة الطارئة لهذه الصديق الشقية ، التى تطوف فى الشرق القريب أو البعيد .

ليتنى أعرف أين هى ، ليتنى أستطيع أن أكتب إليها ، إذن لتحديت هذا الشيطان ، ولدعوتها وألححت فى دعائها لأعلم أعاد مكسيم إلى حبى ، لأنه ما زال يحبنى ، أم عاد مكسيم إلى حبى ليتسلى به عن غيبة لورنس ؟

١٧

كذب الشيطان ، وصدق وحى الضمير . لست مدينة بهذا الحب المجدد لغيبة لورنس ، وإنما هى عواطف فترت وقتاً ثم استأنفت النشاط ، وإنما هو حبنا القديم قد عاد سيرته الأولى بعد أن اعترضته مصاعب لم تلبث أن أزيلت ، وعقاب لم تلبث أن ذللت. وقد كانت لورنس إحدى هذه المصاعب والعقاب ، فقد ذهبت لورنس وخلا لى بذهابها وجه مكسيم . وكانت طفولة الصبى إحدى هذه المصاعب والعقاب ، فقد نما الصبى وربا وأصبح يستطيع أن يشغل نفسه من جهة ، وأصبحت أستطيع أن آمن عليه المربية والخادم من جهة أخرى ، واستردت كثيراً من الوقت والجهد اللذين كنت أنفقهما فى تنشيئه والقيام عليه ، ورددت هذا الوقت والجهد إلى مكسيم صاحب الحق الطبيعى فيهما .

فرغت له وفرغ لى فاستأنفنا حياتنا كما كنا نحياها فى أول عهدنا بالزواج . ومالى أسأل نفسى عما عسى أن يكون لو عادت لورنس ولا أسألها عما عسى أن يكون لو أتيح لى طفل آخر . لقد كنت غافلة ثم تنبهت ، وكنت جاهلة ثم علمت ، فتستطيع لورنس

أن تعود أو لا تعود ، فقد عرفت كيف أحوط زوجى وأحمى قلبه ، وأرد عنه عاديات الحب من لورنس أو من غيرها . وما أشك فى أن نفسى راغبة أشد الرغبة فى ألا نقف عند هذا الصبى الوحيد ، وفى أن نمنحه أخاً أو أختاً . ولكنى لست متعجلة وقد أستطيع أن أنعم بالفراغ لزوجى عاماً أو عامين ، وقد أتيح لنا من حسن الحال وسعة العيش ما يمكننا من أن نربى طفلنا الجديد ، إن أقبل ، على غير ما ربينا عليه أخاه ، فلا أمنحه وقتى كله وجهدى كله ، ولا أنصرف إليه عن زوجى ولا أنصرف إليه عن حقى فى الحياة فلأرد عن نفسى كل هذه الخواطر المظلمة ، ولأستقبل الحياة راضية باسمة ولأنعم بما تحمل إلىّ من أسباب الأمن والنعيم ، ولأغلق دون الشيطان باب قلبى وسمعى ، فإنه لا يوسوس إلا بالشر ولا يلقى فى النفوس إلا اليأس والقنوط .

وقد فعلت ، فمضت أمورنا على خير ما كنت أحب وعلى أحسن ما كنت أتمنى وقتاً ما أدرى أطال أم قصر لولا أنى أرجع إلى الذاكرة فأحصيه فإذا هو أشهر ، وأرجع إليك أنت أيها الدفتر العزيز ، فأرى آخر عهدى بالتحدث إليك ، فيصدق الإحصاء ، وأتبين أنى قد أعرضت عنك ستة أشهر كاملة ، لأنى لم أكن فيها محتاجة إليك ، وما حاجتى إليك وقد استأثر مكسيم بكل وقتى ، وكل نفسى ، وشغلنى عن كل شىء وعن كل إنسان ومنعنى حتى

من أن أخلو إلى نفسى خلوة متصلة فأفكر فيما أستقبل من الحياة .
يا لله ! ! أيمكن أن ينحط الناس من هذه السعادة التى لا توصف إلى
هذا الشقاء الذى لا يطاق ؟

ألم تحدث نفسك ، أيها الدفتر العزيز ، حين أحسست يدى وهى
تأخذك وتقلب صفحاتك بأنى شقية بائسة ؟ وأن الشقاء والبؤس هما
اللذان ألجآنى إليك وذكرانى بمكانك من غرفتى ؟ كلا لم تحدث
نفسك بشىء لأنك لم تحس شيئاً ، وأين أنت من النفس والحس ؟
وإنما أنا التى تحدث نفسها بهذا كله ، ولا تستطيع أن تخلو بهذا
كله إلى نفسها ، ولا أن تبثه أحداً غيرها ، فهى تلقيه إليك ، بعد
أن تفيض عليك من الحياة ما يخيل إليها أنك شخص مثلها ، تسمع
وتعقل ، وتستطيع أن تمنحها السلو والعزاء . وأى سلو وأى عزاء ؟
عمّ أريد أن أسلو وعمّ أريد أن أتعزى . أولا يزال لى فى شىء
من ذلك أمل ؟ ما أدرى ! لقد وقفت عن الكتابة حين بلغت هذه
الجملة من الحديث ، لأنى وقفت عن التفكير ، بل وقفت عن الشعور ،
وأحسست كأن عارضاً من الذهول قد عرض لى ، وكأن كل شىء
من حولى يضطرب أشد الاضطراب ، وكأن أصواتاً من حولى
ترتفع ، تملأ الجو وتفعم الفضاء . وما أدرى أبقيت على هذه الحال
ساعة أو دقائق ؟ ولكنى رجعت إلى نفسى متعبة مكدودة ، لا أكاد
أتمالك .

. ثم أخذ الهدوء يثوب إلى شيئاً فشيئاً والقوة تعود إلى قليلاً قليلا ، وإذا أنا جالسة حيث كنت أنظر إليك ولا أكاد أراك . ثم أسأل نفسي عما أنافيه ، أسألها عما كنت أفعل ، وعما عرض لى ، وعما أريد أن أفعل ، فلا أجد من نفسي إلا جواباً واحداً وهو أنى مقبلة على أشياء خطيرة وأمور ذات بال .

١٨

أتصدقنى ، أيها الدفتر العزيز ؟ أما أنا فلا أكاد أصدق نفسى ، بل أنا لا أصدقها ، وإنما أنا فى ريب من أمرى واختلاط ، لا أدرى أعاقلة أنا أم مجنونة ؟ أمحتفظة أنا بملكاتى كلها كما عهدتها ثابتة هادئة منظمة لا تقدم إلا على بصيرة ولا تدبر إلا على روية وتفكير ، بعيدة كل البعد عن هذه الأوهام التى تعبث بعقول الدهماء ، وتؤثر فى نفوس الشذاذ من الناس ؟ ما أدرى ! ! ولكنى أنكر نفسى أشد الانكار . منذ أيام تخطر لى الخواطر الغريبة فأذودها ، هازئة بها فتعاودنى فأعاود ذيادها ، ثم يتصل الليل بالنهار فإذا الخواطر التى كانت تعرض لى أثناء اليقظة تلح علىّ أثناء النوم . وإذا أنا أفيق مذعورة مرة ومرتابة مرة أخرى . كل ذلك وأنا أتهم نفسى وأنكرها . وألوم نفسى وأعنفها ، وأزعم أن الحب قد أخرجنى عن طورى . وأن الغيرة قد أفقدتنى رشدى ، وأذهلتنى عن صوابى ، وربما تساءلت : أليس من الخير أن أعود إلى أبوى فأقيم معهما أسابيع لأستريح من الحب كما عدت إليهما فأقمت معهما أسابيع لأستريح من الهجر ؟ وأكاد أرجح هذا الميل ، وأكاد أعزم على الرحلة ، وأكاد أفر من نفسى ، ولكن النذر تبلغنى فأقيم .

قلت لك : إنك لن تصدقنى ، وإنى لا أصدق نفسى ، ولكنى لم أنبئك بهذه الأنباء التى أعتقد أنك سترفضها وتأبى أن تؤمن لها . لم أنبئك بهذه الأنباء لأنى أكبرها وأنكرها ، وأستحى أن أقصها عليك ، ولأنى أجد كثيراً من المشقة والجهد فى جمع نفسى هذه المشردة ، وتأليف خواطرى هذه المتفرقة ، وصوغ هذه الأنباء الغريبة فى جمل قريبة أستطيع أن ألقيها إليك . ومع ذلك فلأجتهد ولأجاهد فما ينبغى أن أخفى عليك سرًّا ، وما ينبغى أن نفترق ولما أظهرك على هذه الأحداث الجسام .

ما كنت أظن أن حرصى على حب مكسيم سينتهى بى إلى هذا الطور الذى انتهيت إليه منذ شهرين من الإشفاق والخوف ومن التطير والخضوع للأوهام .

ولكنى قد انتهيت إلى هذا الطور سواء أردت ذلك أم لم أرده ، وقد جعلت ألتمس التأويل والتعليل لكل كلمة من كلمات زوجى ، ولكل نبرة من نبرات صوته ، ولكل حركة من حركاته ، ولكل هذه المظاهر التى تختلف على وجوه الناس حين يبتسمون ويعبسون ، وحين يهدأون ويضطربون ، وأسرفت فى ذلك حتى ضقت به ، وحتى جعلت أروض نفسى على أن أنفق الأوقات القصيرة غير مفكرة فى مكسيم ، ولا حافلة به فلا أبلغ من ذلك شيئاً . وقد ألقى الشيطان فى روعى أنى مدينة لغيبة لورنس بنشاط حبنا بعد فتوره . فأحاول أن أدفع وسوسة

الشيطان هذه عن نفسى ، فأوفق حينًا ثم يعود إلىّ هذا الوسواس ملحًّا مسرفًا فى الإلحاح وإذا أنا أفكر فى لورنس كلما فكرت فى زوجى . وأكاد أسأل نفسى ، كلما وقعت من نفسى أحاديث مكسيم وأعماله موقع الإعجاب والحب : ما عسى أن يكون موقع هذه الأحاديث والأعمال من نفس لورنس لو أنها شهدتها أو ظهرت عليها ؟ وإنى لضيقة باقتحام لورنس علينا حياتنا وقيامها بين زوجى وبينى فى كل لحظة ، وإذا صورة أخرى تقتحم علينا هذه الحياة ، وتقوم بيننا مع صورة لورنس وهى صورة زوجها الفقيد الشهيد . فقد أخذت هذه الصورة تتراءى لى بين حين وحين ، وأخذت أنكر إلمامها بى وظهورها لى ، ولكنها أخذت تكثر من الزيارة وتطيل المقام ، وأكبر الظن أنى أنا التى دعت هذه الصورة لكثرة ما فكرت فى لورنس ، ولكثرة ما أعجبت بوفائها لزوجها ، ولكثرة ما أعدت على نفسى كتابها الذى أنبأت فيه مكسيم بعزمها على الاغتراب .

ولكنى أفيق ذات ليلة مذعورة أشد الذعر ، قد ملئ قلبى روعًا ، واستأثر الهلع بنفسى حتى تصبب جسمى كله عرقًا ، وقد كان أول خاطر خطر لى حين انجلت عنى سحائب هذا الذعر أنها خواطر اليقظة قد ألحت علىّ فى النوم . وقد جعلت أرد الأمن إلى نفسى قليلاً قليلا ، ولكنه لا يعود إلا ليزول . فقد رأيت فيما يرى النائم صورة

ذلك الزوج الفقيد تدعونى بالإشارة فأمتنع عليها ، فتلح فى الإشارة وألح فى الامتناع فتضيف الصوت إلى الإشارة ، فأسمع زوج لورنس يدعونى بصوت هادئ ولفظ واضح صريح : إلىّ ، إلىّ ، فإن مكانك ليس بين هذين الآثمين ولكنه إلى جانبى أنا المظلوم .

وأفيق مذعورة لا أدرى أأيقظنى الذعر أم أيقظنى الصوت الذى سمعته ؟ وأحاول أن أخلص من هذه الصورة ، ولكنها تملأ عينى والغرفة مظلمة . وأحاول أن أخلص من هذا الصوت ولكنه يملأ أذنى والليل من حولى شديد الهدوء ، فأعمد إلى النور فأذود به الصورة ثم أنهض من سريرى ، وأضطرب فى غرفتى ، وأحدث من الحركات ما أذود به الصوت عن أذنى ، ولكنى لا أعود إلى الظلمة إلا عادت الصورة إلى عينى ، ولا أعود إلى السكون إلا عاد الصوت إلى أذنى ، حتى ظننت بنفسى الظنون ، وأشفقت على عقلى من أعراض الخبال ، ولم ينقذنى من هذه الآلام المتصلة والأخطار المحدقة إلا ضوء الصبح حين أقبل بعد انتظار طويل .

قل ، أيها الدفتر العزيز ، ما قلته لنفسى من أن هذا عرض من أعراض المرض ، ومظهر من مظاهر ضعف الأعصاب ، واضطراب المزاج ، ونتيجة من نتائج التفكير المتصل فى حب مكسيم والإشفاق من لورنس . فقد قلت هذا كله لنفسى واستيقنته ، وفكرت فى أن أطبّ له بالرحلة إلى أبوىّ أو بالإبعاد فى السفر . وما يمنعنى أن ألم بباريس

فألهو بحياتها الصاخبة المتنوعة ، عن هذه الحياة الهادئة المتشابهة فى الأقاليم .

ولكن ما رأيك فى أنى لست مريضة ولا ضعيفة الأعصاب ، ولا مضطربة المزاج ؟ ما رأيك فى أن هذه الصورة لم تخدعنى ؟ وفى أن هذا الصوت لم يكذبنى وفى أن زوج لورنس قد أنبأنى بالحق الذى لا شك فيه ؟ فقد عادت لورنس من سفرها البعيد ، وتورطت فى الإثم الذى فرت منه ، ولم تستطع أن تمضى فى المقاومة .

عادت لورنس لا إلى هذه المدينة التى نقيم فيها ، ولكن إلى مدينة أخرى ليس بيننا وبينها إلا ساعتان فى القطار . عادت لورنس واتصلت بمكسيم ، واتصلت الزيارات بينهما ، وكان ما خفت أن يكون .

أتصدقنى ، أيها الدفتر العزيز ؟ إنى لا أصدق نفسى ، وما تعودت من قبل أن أصدق أحلام الليل ، ولكن لورنس قد عادت ، ومكسيم قد عاد إليها ، ولكن قلب زوجى لم يعد خالصاً لى ، ولكن الأمر بين زوجى وبينى لم يقف عند هذا الحد ، فقد عرف الناس من إمره ما كنت أجهل ، ولم أعرف حقيقة هذا الأمر إلا بعد أن عرفه الناس ، وقد عرضنى ما ظهر من أمره إلى أكثر من ألم المرأة التى يخونها زوجها . عرضنى لطمع الطامعين ، وأغرى بى الذين ينتهزون الفرص من الأصدقاء الأوفياء . عرضنى لألم المرأة التى تهان فى حبها ، ولخزى المرأة التى تهان فى كرامتها ، أأصدق أحلام الليل أم أكذبها ؟ أأستجيب لهذه الدعوة التى وجهها إلى زوج لورنس أم أمتنع عليها ؟

١٩

ما أشد شوقى أيتها الصديق العزيزة لورنس : وددت لو استطعت أن أطير إليك لأضمك بين ذراعى ، ولأقبلك قبلات تنقل إلى قلبك بعض ما فى قلبى من حب ووفاء ، ومن إكبار وإجلال ، ومن شكر للصنيعة واعتراف بالجميل ، ولأذرف على كتفك دموعاً تصور الحزن لفراقك ، والفرح بلقائك . والإكبار لتضحيتك ؛ والشكر لبعض فضلك ، والأسى لما احتملت من حرمان ، والإعجاب بما أظهرت من شجاعة وحسن احتمال ، وكنت خليقة أن أفعل هذا كله لو أن نبأ عودتك إلى الوطن قد ألقى إلىّ ساذجاً يسيراً كما تلقى الأنباء ، فقد كنت مدينة لك بحبي ، وكنت مدينة لك بسعادتى ، وكنت مدينة لك بحياتى . وما أدرى أفهمتنى كما أنا أم لم تفهمينى ، ولكن المحقق أنى بعد أن أحببت مكسيم وبلوت السعادة بحبه لا أتصور الحياة بدون هذا الحب ، ولا أطيق لها احتمالا .

ألعلك عرفت هذا كله وقدرته حين هاجرت من أرض الوطن ، وضحيت بلذاتك وآمالك ، وبعواطفك وشعورك ضنًّا بى على اليأس ، وحرصاً على أن أتجنب آثاره الوبيلة وعواقبه المهلكة . أم لعلك إنما هاجرت من أرض الوطن ضنًّا بنفسك على الإثم وارتفاعاً بها عن النقيصة

وفرارًا من الخيانة للأحياء والأموات ؟ هذه الخيانة التى لا تليق بالنفس الكريمة ، ولا تلائم القلب الذكى النقى . أم لعلك قدرت الأمرين جميعًا فنصحت لى ونصحت لنفسك ، وأبقيت على حياتى ، وأبقيت على كرامتك ، حين أزمعت ذلك الرحيل . مهما يكن من شىء فإنك قد منحتنى الحياة مرة ثانية حين تركت لى قلب مكسيم وحبه . فأنا مدينة لك بهذه الحياة ، ولو قد اطلعت على قلبى من مهاجرك ذلك البعيد لرأيت أنى كنت قد اتخذت لك فيه معبدًا خاصًّا أسميته معبد الوفاء ، ولعلمت أنى كلما أحسست لذة وغبطة أو سعادة أو ألمًا أو حسرة ، وما أكثر ما كنت أحس هذا كله ، قدمت إليك بعض ما كنت أجد قربانًا لوفائك وعرفانًا لجميلك ، وإيمانًا بما لك علىّ من فضل ليس إلى وصفه ولا إلى تقديره من سبيل . ليت النبأ الذى حمل إلى عودتك إلى أرض الوطن ألقى إلىّ سمحًا سهلاً نقيًّا . إذن لأسرعت إليك ولأديت بين يديك بعض ما كان ينبغى أن أؤدى من الشكر والوفاء، ولكنى عرفت عودتك مصادفة . وأى مصادفة ! إنى لأذكرها فتقف نفسى عن التفكير ، ويقف قلبى عن الشعور ، ويقف قلمى عن الكتابة وتنحدر من عينى دموع غزيرة حارة ، ولكنها لا تخفف هذه النار المضطرمة بين جوانحى نار اليأس والحسرة وخيبة الأمل وكذب الظنون .

هذا المعبد الذى كنت أقمته فى قلبى قد تهدم ، وهذه الصورة

الجميلة التى رسمتها لنفسك فى أعماق ضميرى قد درسها المسخ والتشويه ، واستحالت إلى صورة مخيفة بشعة ، تروعنى وتملأ نفسى هلعًا وجزعًا . . .

ماذا ؟ أيستطيع الناس أن يرتفعوا من البر والطهر والنقاء إلى حيث ارتفعت يا لورنس ، ثم يهبطوا من الخزى والإثم والعقوق إلى حيث هبطت يا لورنس ؟ أشهد أن الإنسان مستقرّ المتناقضات ، وأن الشهوة أقوى من العقل وأن الشر أعظم على نفوس الناس سلطانًا من الخير . أتعرفين كيف انتهى إلىّ نبأ عودتك ! فى حديث من هذه الأحاديث المألوفة التى تجرى بين الأصدقاء فى غير تكلف لها ولا احتفال بها ؟

كنا نسمر فى بيتنا كما تعودنا أن نفعل مع جماعة من الأصدقاء الذين تعرفينهم ، وكنا نتجاذب الحوار فى موضوعات مختلفة كما تعودنا أن نفعل ، فانتهينا إلى الحب وانتهينا إلى الوفاء ، وأفضنا فى ذلك حتى عرض مكسيم لعادة نقرها بعض الجماعات المتحضرة ؛ عادة تعدد الزوجات .

وإذا مكسيم يدافع عن هذه العادة دفاعًا حارًّا ، ويذود عنها ذيادًا عنيفًا ، ويزعم أن قلب الإنسان أوسع من أن يضيق بحب شخصين ، أو حب أشخاص . والأصدقاء من حولنا يجادلونه فى ذلك جدالاً عنيفًا ، وأنا أسمع ذلك ضاحكة منه أول الأمر ثم منكرة

للغلوّ فيه ، ثم دهشة لهذه الحماسة التى يظهرها مكسيم . ثم متنبهة لما كان يردّ به فيليب من ألفاظ لا تخلو من تلميح وتعريض .

ثم نتفرق ، وقد وقر فى نفسى من هذا الحوار شيء لم يخل من تنغيص ، لما كان بينى وبين مكسيم من صفو . وأكاد أنسى هذا الحوار وأعرض عنه بعد أيام . ولكن فيليب الذى يتردد علينا ، ويكثر التردد ، والذى يتودد إلىّ ويسرف فى التودد ، يزورنى ذات يوم ، وقد عرف أن مكسيم غائب فى بعض أسفاره القصيرة التى كثرت واتصلت فى هذه الأيام ، فنأخذ فى أطراف من الحديث وما أسرع ما يبلغ بحديثه نجوى الحب التى أرده عنها كلما ألمّ بها ساخرة منه فى رفق ومودة ، ولكنه فى هذه المرة لم يرتد ، ولم يثب إلى وقاره ، ورعاية ما كان يرعى من الحق ، وإنما تمرد واحتد وثار ثائره ، واندفع فى ألفاظ مختلطة ، عرفت منها بعد دقائق كل شيء .

عرفت منها أن الرسائل اتصلت بينك وبين مكسيم بعد أن عجزت عن احتمال الفراق الطويل ، وعرفت منها عودتك إلى فرنسا واستمرارك فى جرينوبل ، واستئناف الأمر بينك وبين زوجى ، وعرفت منها أمر هذه الأسفار القصيرة المتصلة التى كانت تدعو إليها الأعمال فيما كان ينبئنى ، والتى إنما كان يدعو إليها الحب وما استتبع من لهفة بعد طول الفراق ، ومن ظمأ بعد طول الحرمان .

ولله قلب فيليب هذا الفتى البائس المسكين ، الذى ثاب إلى رشده

بعد أن فضح السر وخان الأمانة ، وأظهرنى على ما كنت أجهل ، فقد تولى كئيباً يائساً مستخذياً ، ثم انقطعت عنى أخباره. أما أنا فقد ثبت لهذه الصدمة كما ثبت لصدمة أخرى تعرفينها . فلم أثر ولم أجزع ، ولم أصل إلى الأزمة كما لم أصل إليها من قبل ، ولكنى لم أقاوم حب الاستطلاع بل لم أفكر فى المقاومة وإنما وازنت بين خيانة مكسيم لحبنا وبين ما سأقدم عليه حين أخونه فى ما يحفظ من الرسائل . وما هى إلا أن أقتنع بأن هذه الرسائل من حق .

ويقبل الليل وتهدأ الحركة ، وتستقر الأشياء ، وأذهب أنا إلى مكتب مكسيم ، فأنفق الليل فيه مع رسائلك يا لورنس ، على حين كان ينفق مكسيم ليله فى حبك فى غرفة من الغرفات فى مدينة جرينوبل . ولست أدرى كيف أصف ما كنت أجد من شعور حين كنت أقرأ رسائلك الرائعة وحين كنت أتصور الخاتمة التى انتهى إليها هذا الجهاد المجيد ؟ ولكنه لم يكن شعور ثورة ولا غضب ولم يكن شعور سخط عليك أو لوم لك ، وإنما كان شعوراً حزيناً هادئاً مطمئناً . وكان شعوراً حزيناً يائساً مصمماً مع ذلك . وكان فيه كثير من الرحمة لك ، والاعتذار عنك ، والإشفاق على طفلنا هذا البائس التعس الذى لن يستقبل الحياة كما كنت أتمنى أن يستقبلها سعيداً بين أبوين سعيدين . وأنا أكتب إليك الآن ، ولست أدرى لماذا أكتب إليك ! ولكنى دفعت إلى ذلك دفعاً .

أكتب إليك ، وقد ارتفع الضحى ؛ وأظن مكسيم يوشك أن يودعك ، فقد ينبغى أن يبلغنا نحو الساعة الثانية . وقد يصل إليك هذا الكتاب مساء اليوم ، أو صباح الغد ، فاقرئيه واذكرى كاتبته ! واعلمى أنها لا تضمر لك بغضاً ولا تحفظ لك موجدة ، وإنما تسدى إليك الشكر ، وتهدى إليك التحية وتتمنى لك ما لم يتح لها من السعادة ، وما لم يقدر لها من النعيم .

٢٠

كلا لم أكن صادقة أيها الدفتر العزيز حين زعمت للورنس أنى لست ثائرة ولا محنقة ، ففيم كتبت إليها هذا الكتاب ؟ ولم أرسلته فى غير تردد . ودون أن أسأل نفسى عما يمكن أن يكون له من عاقبة ، وعما يمكن أن يحدث من أثر فى نفس هذه الصديق البائسة ، وفى نفس مكسيم الذى سيظهر على كل شىء ؟

لم أكن صادقة فيما زعمت ، وإن كنت صادقة فيما عملت . فقد استجبت لغريزتى ، وأذعنت لعواطفى ، ولم أفكر ولم أرو ، ولو استطعت الآن لاسترجعت هذا الكتاب ، ولتركت هذين الآثمين البائسين ينعمان أو يشقيان بما قضى عليهما من إثم وبؤس . وما عسى أن ينفعنى هذا الكتاب ؟ أتراه يرد إلىّ هذا الحب الضائع الذى لا سبيل إلى أن يعود ؟ واحسرتاه إنى لأفكر وأقدر كما يفكر الناس ويقدرون برغم ما أشعر به فى أعماق نفسى من انقطاع الصلة بينى وبين الناس ومن أنى قد انتقلت إلى عالم آخر يجب أن أفكر فيه على نحو جديد بل يجب أن أستريح فيه من التفكير .

ما أشد شوقى إليك أيتها الأم العزيزة . ما أشد شوقى إليك أيها الأب الرحيم ، ما أشد شوقى إليك أيها الأخ الكريم . لقد كنتم أجدر

الناس بلقائى وشفائى من هذا الذى أشتى به ، ولا أعرف كيف أسميه ، ولكنى لا أستطيع أن أسعى إليكم ، ولا أن أبلغكم ، ولا أن أحملكم من أثقالى أكثر مما احتملتم إلى الآن .

وأنت أيها الدفتر العزيز ، ما أشد صبرك على ، واحتمالك لى ، ومواساتك لهذا القلب الكسير . أترانى سأعرض عنك كما عودت الأعراض عنك ، ثم أعود إليك كما تعودت العودة إليك ، مشغوفة بك لاجئة إليك مستخذية منك ؟

وداعاً على كل حال . ومكسيم . . . ؟ كلا ، ما ينبغى أن أفكر فى مكسيم . وأنت أيها الطفل العزيز ؟ كلا ، ما ينبغى أن أفكر فيك الآن ، وإن كنت لا أجد إلى الانصراف عنك سبيلا . . .

وأصبح الناس ذات يوم وقد قرءوا فى صحف الإقليم نعى سيدتين أهدت كل واحدة منهما نفسها إلى الموت ، وجعل الناس فى المدينة إذا لقى بعضهم بعضاً يلمون بهذا النبأ ، ويقول بعضهم لبعض يا عجباً كأنما كانتا على ميعاد .

الحب اليائس

قال القسيس وهو يضحك للراهبة وهي تبكي : على رسلك أيتها الأخت العزيزة فإن الله يكره الإسراف لعباده حتى فى حبه والإنابة إليه ، واحذرى أن يكون إغراقك فى هذا الندم وإلحاحك فى هذا الحزن الذى يوشك أن ينتهى بك إلى اليأس من روح الله الذى لا ييأس منه المؤمنون ، احذرى أن يكون هذا مظنة للريبة ، وثقى — وأنت واثقة طبعاً — بأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فاجتهدى فى ألا يظهر الله منك على سر تكرهين أن يظهر عليه .

وكان ضحك القسيس هادئاً حتى إذا انتهى إلى هذه الجملة قوى وظهر فيه العنف حتى وجمت له الراهبة لحظة ، ثم ثابت إلى نفسها وجففت دمعها ونهضت متثاقلة ، وخرجت صامتة لم تحى الشيخ ولم تقل له حرفاً ، وإنما مضت أمامها لا تلوى على شىء كأنما أوذيت فى ضميرها ، فلم تر دفعاً لهذا الأذى إلا أن تفر من مصدره فراراً .

وما أظنك فهمت من هذا الحديث كله شيئاً ، وأى غرابة فى ذلك ؟ فأنت لم توكل بحل الألغاز ولا بتأويل المشكلات ، وإنما أنت قارئ أو قارئة — أستغفر الله — قارئة أو قارئ ، يعرض عليه الفصل ، فإن استقبله فاهماً لأوله مضى فيه حتى يبلغ آخره ، وإن

أعياه أول ما يستقبل منه تجلد إن كان من أولى العزم ومضى فى القراءة ، لعله إن تقدم بعض الشيء كشفت عنه الحجب ، وذللت له الصعاب ، وفهم ما لم يكن يفهم ، وإن لم يكن من أولى العزم أعرض عن القراءة وألقى الصحيفة أو الكتاب إلقاء .

وأنا أرجو لك أن تكون جلداً صبوراً وأن تمضى فى القراءة شيئاً فلعلك تفهم عاقبة هذه الألغاز والرموز . والحق أنى لم أكن لألغز ولا لأوثر الرمز والإيماء ، ولا لأقدم فى أول هذا الفصل ما حقه أن يكون فى آخره ، لكن الكتاب المحدثين يذهبون هذا المذهب حين يريدون أن يقصوا عليك أقصوصة لها حظ من قيمة ، أو نصيب من طرافة ، وهم فيما يظهر إنما يذهبون هذا المذهب تشويقاً للقارئ وإيقاظاً لحبه الاستطلاع وميله إلى تعرف الأنباء .

وأنا أظن أن القصة التى أريد أن أقصها عليك خليقة أن أشوقك إليها وأنبهك إلى دقائقها ، ومن هنا ذهبت فى أولها مذهب الكتاب المحدثين . ومن يدرى ؟ لعلى لم أفعل ذلك إلا تقليداً لهم واقتفاء لآثارهم ، وتكلفاً لبعض فنهم الطريف . وسواء أكان هذا أم ذاك فقد أفرغ بعد كلام قليل أو كثير من هذه المقدمات ، وانتهى بك إلى القصة نفسها لترى أأنت أخليقة هى بالعناية ، أم ليس لها خطر ولا شأن . ولا ينبغى أن تسألنى فيم هذه المقدمات ، أو فيم هذا التعليل والتحليل ، والإبعاد عن الموضوع والتكلف الذى يزهق النفس ويثقل على القلب !

لا تسألني هذا السؤال فإن جوابه حاضر ، وهو أني أريد أن أذهب في هذا أيضاً مذهب جماعة من الكتاب المحدثين الذين يريدون أن يظهروك لا على القصة التي يحبون أن يقصوها عليك فحسب ، بل على مذهبهم في القصص وطريقتهم في التفكير أثناء القصص ، يريدون أن يظهروك على أنفسهم حين يتحدثون إليك ، لتراها واضحة جلية ، ولترى أنهم يصدقونك ويكبرونك كل الإكبار ، فلا يعبثون بك ولا يتكلفون لك ، ولا يكذبون عليك .

وأنا أعترف بأني لا أحدثك عن هذه الراهبة التي كانت تبكي بين يدي القسيس ، والتي كان القسيس يضحك لها ليردها إلى الأمن والطمأنينة ، فأساءت به الظن وقدرت أنه يضحك منها ويهزأ بها ، فانصرفت عنه كئيباً محزونة الفؤاد يكاد يملأ نفسها اليأس .

لم أحدثك عن هذه الراهبة البائسة السعيدة ، إلا لأن حديثها أعجبني وراقني وأثّر في نفسي أبلغ التأثير ، وإياك أن تظن أنه حديث مصطنع قد ابتكره الخيال ابتكاراً ، فلو كان الأمر خيالاً لأنبأتك بذلك ، ولكنه حديث كله حق وصدق . ولا لك من أن تقبل مني ذلك ، لا لشيء إلا لأني أنبئك به والأصل في الكاتب أنه صديق القارئ ، ينصح له ولا ينبئه إلا بالحق ، أليس كذلك ؟

كانت هذه الراهبة في الوقت الذي بكت فيه بين يدي القسيس وضحك لها فيه ، أو ضحك منها القسيس ، قد بلغت الخمسين

من عمرها أو كادت تبلغها ، وكانت قد أنفقت فى الدير أعواماً طوالاً لا تقل عن ربع قرن ، متكلفة ما تتكلفه الراهبات فى صدق واقتناع وإيمان من حياة الزهد والنسك ، ومن خشونة العيش وتكلف الجهد الثقيل ، وكانت قد خصصت نفسها بعد أعوامها الأولى فى الدير لخدمة الفقراء والبائسين ، وللعناية بالمرضى والذين مسهم الضر وألح عليهم الشقاء . وكانت تجد فيما تعانى من ذلك لذة لا تعدلها لذة ، وسعادة نفسية لا تبلغها سعادة ، وكانت كلما بلغ منها الجهد وثقل عليها العناء ازداد نصيبها من الغبطة وحظها من الرضى . ولم تكن تؤثر من المرضى وأصحاب العلل إلا أسوأهم حالاً ، وأخبثهم علة ، وأقبحهم مرضاً ، لتبتلى نفسها فى العناية بهم بأشد أنواع الابتلاء . ولترى الألم الإنسانى فى أقبح صوره وأبشعها ، ولتروض نفسها على شر ما تراض عليه النفوس ، ولتثبت فى قلبها أن الحياة الدنيا لعب ولهو وباطل آخر الأمر .

ومع هذا كله فقد كانت على حظ من جمال أدركه شىء من الذبول والذواء ، ولكنه لم يستطع أن يغير من معالمه ، ولا أن يمحو مظاهره على ما كانت تحرص عليه هذه الراهبة من أن ترد نفسها إلى شر ما تستطيع امرأة أن تبلغه من سوء الحال . ومصدر ذلك أن هذه الراهبة كانت من بيت عظيم بعيد النسب فى الشرف الفرنسى ، رفيع المكانة فى الحياة الفرنسية منذ قرون ، توارث أهله المجد والثروة

والرفعة والنعمة على اختلاف العصور والظروف ، وألمّت بهم المحن فاحتملوها كراماً وخرجوا منها ظافرين ، وما أكثر ما كانوا يمتحنون فى مكانتهم وثروتهم ، ثم يخرجون من المحن محتفظين بالمكانة والثروة جميعاً .

وكانت راهبتنا فى أول عمرها صبية رائعة الجمال ، قوية الحس ، دقيقة الشعور ، زكية القلب مرهفة العقل ، وكانت فتنة أبويها . كانا يؤثرانها على أخيها الذى كان يشغف بحياة العنف والمخاطرة ، على حين لم تكن هى تصبو إلا إلى حياة الحب والعطف والحنان . ذهب أخوها مذهب أمثاله من شبان الأشراف ، فطلب العلم ثم اتصل بمدارس الحرب ، ثم انتظم فى الجيش ثم كانت الحرب الكبرى ، فكان فى مقدمة هذا الشباب الذى استقبل العدو . وقد اتخذ للموت فى سبيل الوطن زينة الأشراف فلم يعد إلى أهله ولم يطل انتظارهم لأنبائه ، وإنما انتهى إليهم نعيه فى الأشهر الأولى لهذه الحرب . ولما انتهى نعيه إلى أبويه كان إيذاناً لهما بأن حظهما من هذه الحياة قد انقضى ، وعملهما فيها قد انتهى ، فقد كان هذا الفتى بقية آمالهما بعد أن ذهبت أخته إلى الدير ذات يوم فلم تعد منه إليهما ، لسبب لم يعرفاه ولم يستطيعا أن يهتديا إليه ، ومع أنهما قد جهدا فى صرف الفتاة عن الدير أقصى الجهد ، وبذلا فيه ما يستطيعان وما لا يستطيعان من السعى ، واستعانا عليه بالأصدقاء من خاصتهما وبذوى المكانة والمنزلة

من معارفهما ، فإن الفتاة لم تستجب لهما ولم تسمع لما كانا يلقيان إليها من حديث ، ولم ترق لما كانا يسفحان من دموع !

ثم تنقضى سنة المران والامتحان والاستعداد وتدنو الساعة التى تهب الفتاة فيها نفسها لله هبة حازمة قاطعة لا رجعة فيها ولا انصراف عنها ، وتعود الأسرة إلى ابنتها ضارعة مستعطفة ملحة فى الضراعة والاستعطاف ، فلا تزداد الفتاة إلا إباء وإصرارا ، ثم ينفذ القضاء وتعطى الكلمة الحاسمة ، وتصبح الفتاة وقد انقطعت الأسباب بينها وبين ما وراء الدير ، ومن وراءه من الحياة والأحياء . ثم تنقطع الصلة بين الفتاة وبين أسرتها فجأة ، وتجهل الأسرة من أمر ابنتها كل شىء ، قد نقلت من ديرها الذى كانت فيه إلى دير غير معروف ، ثم أخذت الأدير تتقاذفها فى أرض الوطن ، وفى أرض الغربة فى القارة الأوروبية ، وفى الشرق القريب وفى الشرق البعيد ، وفى تلك الجزر النائية التى تكثر فيها العلل المهلكة والأوبئة القذرة ، ثم ترد الراهبة فى عام من الأعوام إلى فرنسا ، لتعمل فيها مثلما كانت تعمل فى جميع المواطن التى تقاذفتها أعواماً وأعواماً ، ولكن لتجد فى وطنها بعض الراحة من هذا العناء الطويل الثقيل الذى احتملته ، ومن هذا الجهد العنيف المهلك الذى بذلته . وكانت الراهبة قد استحقت هذه الراحة لأنها كانت قد أبلت فأحسنت البلاء . وحمل أنت هذه الكلمات ما تستطيع أن تحملها من المعنى ، فلن تؤدى إلا بعض ما أريد أن أقول ، لأنى

مضطر إلى أن أوجز ، راغب عن الإطالة كل الرغبة ! .

عادت الراهبة إلى وطنها إذن لتعمل فيه وتستريح . وهذا مريض سيء الحال قد أدركه السل وانتهى به إلى غايته ، وهو مشرف على الموت ، وهو فقير بائس ، ينفق ما بقى من أيامه البائسة فى بيت حقير قذر ، وهذه الراهبة تمرضه وتقوم بأمره ، وتعينه بما تمنحه من الرحمة والعطف والحنان والعناية المادية ، على أن يخطو هذه الخطوات القليلة الضئيلة التى تلقيه بين ذراعى الموت ، وتستنقذه من مخالب العلة والمرض . وقد خطا المريض أكثر هذه الخطوات ، ولم يبق بينه وبين الراحة إلا سبب ضئيل ، ضئيل جداًّ ، تقطعه أيسر وطأة للمرض ، فليدع القسيس إذن ليهيء هذا المريض للقاء ربه .

وهذا القسيس يقبل ، وهذه الراهبة تفتح له الباب وتلقى عليه النظرة الأولى ، وإذا قلبها يخفق خفقة تكاد أن تهوى بها إلى الأرض ، لولا أن تملك البائسة نفسها وتعتمد على بعض الأثاث . وقد دخل القسيس فأدى واجبه ، وأبرأ المريض من آثامه وإن لم يبرئه من علته . ثم انصرف ، ولكن الراهبة تستوقفه عند الباب ، وتسأله فى صوت خافت مرتجف ، ألم تعرفنى يا أبتِ : فيجيبها : كلا أيتها الأخت . من عسى أن تكونى ؟ فتقول : ومع ذلك فلم أكد أراك حتى عرفتك ، ولم أكد أسمع صوتك حتى انهدم له قلبي انهداماً ! فيسألها القسيس ملحاًّ : من تكونين؟ تجيبه : أنا فلانة بنت فلان وأخت فلان . قال القسيس وقد اضطرب

صوته اضطراباً يسيراً : « سلام عليك أيتها الأخت ، وبارك الله لك فى حياتك وفى عملك » ثم انصرف مهرولا . ولما أمسى كان قد طلب إلى رئيسه أن ينقله إلى مدينة أخرى .

وعادت الرهبة إلى مريضها فأبلغته مأمنه ، حتى إذا انتهت مهمتها ذهبت إلى القسيس الشيخ ، الذى كان يضحك لها أو يضحك منها فى أول هذا الفصل ، تعترف له وتعتذر بين يديه : وتعلن إليه ندمها ، لأنها ذكرت بعد هذه الأعوام الطوال حباً قديماً استيأست من غايته ، فذهبت إلى الدير وانقطعت لعبادة الله والبر بالبائسين . وخيل إليها أنها قد انصرفت عن ذلك الحب الإنسانى ؛ وتعزت عنه بهذا الحب الإلهى . ولكنها رأت فذكرت ، فعاودها الأسى ، فهى نادمة وهى مشفقة من الخطيئة . وهى تلح فى هذا الندم ، وتغرق فى هذا الإشفاق ، وتطلب إلى القسيس الشيخ أن يرد إلى قلبها الأمن ، وأن يستنقذ نفسها من هذا الخوف ، وأن يذود عنها هذه الصور المزعجة التى يثيرها الندم أمام عينيها ، والقسيس الشيخ لا يشفق عليها من ذكر هذا الحب القديم والحزن له والتأثر به ، فأى شىء فى هذا كله ؟ إنها امرأة ، إنها ابنة الإنسان ، والإنسان ضعيف . إنما يشفق عليها من إطالة الندم والإغراق فى التفكير ، فمن يدرى ؟ لعل إطالة الندم على بعض الخطيئة شر من الخطيئة نفسها ؛ لأنه استبقاء لها واحتفاظ بها ، وحنين إليها ، وادخار لهذا السبب الذى يصل بين الإنسان وبينها .

كان القسيس الشيخ رفيقاً بالراهبة ، ولكنها لم تفهم منه هذا الرفق ، فلما انصرفت لم تفكر إلا فى أن تطلب إلى رئيستها فى الدير رحلة بعيدة إلى جزيرة من تلك الجزر النائية التى يكثر فيها المجذومون ، ويحتاج فيها المرضى إلى عناية الراهبات .

الحب المكره

كانت تلم بالبيت ساعات فى كل يوم فتملؤه بصوتها العذب ، ووجهها المشرق ، ونشاطها العجيب ، غناء وجمالاً وحياة . وكان صوتها فى ذلك اليوم أكثر عذوبة ، وكان وجهها أعظم إشراقاً وابتهاجاً ، وكان نشاطها أشد حدة من كل يوم آخر ، حتى اضطررت إلى أن أسألها عن أمرها وشعرت بالحاجة إلى أن أتبين مصدر هذا المرح الذى ملك نفسها وجسمها معاً . فقلت لها : « ما أرى إلا أنك أسعد منك فيما مضى من الأيام » . قالت وهى تضحك : « نعم يا سيدى وما يمنعنى أن أكون أسعد الناس ، وقد نجح ابنى فى امتحانه ، وظفرت بنتى بالشهادة الابتدائية ، وربح زوجى ورقة لا بأس بها من أوراق النصيب » .

ولكنك لم تعرف هذه السيدة التى أحدثك عنها ، ويظهر أنى أنسيت أن أقدمها إليك كما يقولون ، فلأصلح هذا الخطأ ولأستدرك هذا النسيان : هى امرأة فرنسية من هؤلاء الخادمات اللاتى لا يقصرن خدمتهن على بيت واحد ، يلزمنه ويقمن فيه ، وإنما يتنقلن بخدمتهن بين طائفة من البيوت يعملن فى كل واحد منها ساعات ويقتضين أجورهن آخر الأسبوع على الساعات ، لا على الأيام ، ولا على

الشهور . وهن يعملن فى هذا البيت أو ذاك ما أحببن العمل فيه وما استقامت أمورهن مع صاحبته ، فإن ضقن به أو ضاق بهن تركنه وعملن فى بيت غيره . وما أكثر البيوت التى تحتاج إلى هؤلاء الخادمات تجد فى استخدامهن اقتصاداً فى النفقة وتوفيراً لما يحتجن إليه من طعام ومسكن إن لزمن البيت أو قصرن خدمتهن عليه . وهن يجدن فى هذه الخدمة الموزعة على البيوت لذات مختلفة ويجنين منها منافع شتى هى أربح لهن وأجدى عليهن ، يكسبن منها فى الأسبوع ما يكسبنه فى الشهر من الخدمة المقصورة على بيت واحد ، ويجدن فى تنويع هذه البيوت لذة التنقل ، واختلاف العمل ، واختلاف الحديث ، واختلاف الناس الذين يكون إليهم الحديث ، واختلاف البوابات التى تكون الخدمة فى بيوتهن ، واختلاف الشوارع والأحياء التى تقوم فيها البيوت أحياناً ، ولهن بعد ذلك حرية يحرصن عليها أشد الحرص فيما يحتجن إليه من طعام وما يتخذن من سيرة فى الحياة ، ولهن الليل بعد ذلك ينفقنه مع أزواجهن وأبنائهن أو مع أخلائهن إن لم يكن لهن أزواج ولا أبناء . وهن يعملن ما أحببن العمل ، ويكسلن ما أحببن الكسل ، وينقلن أشخاصهن من بيت إلى بيت ، وينقلن مع هذه الأشخاص ما فى نفوسهن من لذة وألم ، ومن مرح وخمود ، ومن حزن وابتهاج . وينقلن أحاديث البيوت والأسر من دار إلى دار فينبئن هذه بأحاديث تلك ، وينبئن تلك بأحاديث هذه ، وينبئن البوابات

بأحاديث الناس جميعاً . ويكوّنّ على هذا النحو طبقة خاصة من النساء ما أرى إلا أنها تصلح موضوعاً قيماً لبحث اجتماعى نفيس .

وكانت مدام ليونتين هذه التى أتحدث عنها امرأة من إقليم بريتانيا الفرنسية ، قد بلغت الأربعين أو جاوزتها قليلا ، ولكن من يراها لا يشك فى أنها لم تبلغ الثلاثين بعد . قصيرة القامة ، ولكنها معتدلة القد ، كثيرة الحركة سريعتها ، كأنها النحلة لا تستقر ، مشرقة الوجه قوية اللحظ ، عذبة الحديث رشيقته ، لا يكاد لغوها ينقطع ، كما أن نشاطها لا يكاد يقف . وكان البيت هادئاً مطمئناً يستقبل الصباح فى سكون لا تكاد تحس فيه اليقظة فإذا دخلته استحال البيت كله إلى حركة ونشاط وغناء وحديث . وكانت خفيفة الروح لا يستثقل منها هذا الاضطراب العنيف الذى تدفع البيت إليه دفعاً وتغرقه فيه إغراقاً ، وربما أحس أهل البيت شيئاً من الفراغ والضيق بالفراغ حين تم عملها ، وتلقى تحيتها وتمضى مسرعة لتستأنف عملا جديداً فى بيت آخر .

وقد اتصل الحديث بينها وبينى فى ذلك اليوم الذى لفتنى إليها فيه نشاطها غير المألوف : فعرفت أنها لم تكن خادماً ماهرة ، ولا امرأة جميلة ، ولا مغنية بارعة ، ولا متحدثة لا يشق لها غبار ، وإنما كانت هذا كله ؛ وكانت شيئاً أكثر من هذا كله . كانت فيلسوفة ، وفيلسوفة بأوسع معانى الكلمة ، لا بأدق هذه المعانى ، فهى لم تكن

تحسن المنطق وعلم النفس ، ولا تجيد الأخلاق وما بعد الطبيعة ، وماذا تصنع بهذه الثرثرة التى يفنى الفلاسفة فيها أعمارهم ، إنما كانت تفلسف فى الحياة الواقعة وفيما يملأ هذه الحياة الواقعة من الأحداث . وكانت تفلسف فى حياتها الخاصة فتحسن الفلسفة ، والحق أن حياتها الخاصة كانت خليقة بالروية والتفكير . وأهم ما كان يعنيها من حياتها هى هذه الصلة التى كانت بينها وبين زوجها ، فهى كانت تحبه ولكنها تحبه كارهة له ، خائفة منه أشد الخوف ، وقد ترى أنت وقد أرى أنا فى هذا الكلام تناقضاً وفساداً ، ولكن مصدر هذا فى أكبر الظن أننا لا نحسن الفلسفة كما كانت تحسنها مدام ليونتين .

فهى كانت ترى — ويظهر أنها لم تكن مخطئة — أن الحب يكون مع البغض ، وأن الأمن يكون مع الخوف ، وأن الافتتان يكون مع الاشمئزاز ، وأن السعادة بعد هذا كله تكون مع الشقاء . وهى كانت تعلن هذا كله ، وتقيم من نفسها ومن حياتها الدليل عليه ، وهى كانت تقنع الناس وتقنعنى أنا ، فإذا لم أستطع إقناعك بما كانت تقنعنى به ، فمصدر ذلك أنى لم أحسن النقل عنها ولا الإعراب عما كانت تقول لأنى لا أجد مثل ما تجد ولا أحس مثل ما تحس . ولن يحسن المترجم فنه فيما يظهر إلا إذا استعار شخصية من يترجم عنه ، فخلطها بشخصيته خلطاً ، أو مزجها بشخصيته مزجاً كما يقول أصحاب الكيمياء .

نشأت مدام ليونتين فى قرية ساحلية من قرى المحيط ، وكانت نفسها مستوحشة كالبيئة التى نشأت فيها بين هذا المحيط المصطخب دائماً ، وهذه الصخور المنعزلة الشاهقة ، وفى هذه الحياة التى لا تخلو من خشونة وشظف . وكانت كغيرها من الفتيات الحسان وغير الحسان ، تنظر إلى الشباب وتداعب الأحلام حين تنظر إلى الشباب ، وكان الشباب ينظرون إليها وإلى غيرها من الفتيات أمثالها فيداعبون الأحلام وغير الأحلام ، ولعلها قد أطالت النظر إلى فتى بعينه ، ولعلها فكرت فيه فأطالت التفكير ، ولعلها عرضت إليه غير مرة ثم لم تستطع أن تدنو منه ولا أن تتحدث إليه ، ولعلها كانت تنتظر أن يلقى إليها النظرة الأولى وأن يدعوها إلى الرقص مساء السبت أو مساء الأحد ، وأن يأخذ معها فى بعض الحديث .

ولكن الغريب أن هذا الفتى أو غيره من الذين كانوا يمثلون أحلام الفتاة وآمالها لم يعرض لها ولم يسع إليها ، ولعله كان ينتظر الوقت الملائم والفرصة السانحة ، فسبقه إلى هذا الوقت وانتهز من دونه هذه الفرصة فتى آخر ليس بينه وبين أحلام الفتاة وآمالها صلة ولا سبب ، لا يروقها منظره ، ولا يعجبها حديثه ، ولا تميل إلى الرقص معه . ولعلها إن رأته كرهت الدنو منه وآثرت الانصراف عنه ، ولعلها إن رأته أشفقت أن يدنو منها أو يبسم لها أو يلقى إليها بالا أو يرمى إليها بلحظ أو لفظ ؛ ولكنه مع ذلك أقبل عليها واضطرها إلى أن تراه ،

وتسمع له ، وترفع بصرها إليه ، وتذعن لحديثه الذى كان يلقيه إليها ، كما يلقى الأمر الحازم إلى المذعن المطيع .

دعاها فنفرت ، فألح فى الدعاء ، فاضطرت إلى أن تستجيب ، وأحب أن يداعبها فجمحت ، ولكنه أغلظ الصوت وحدد اللحظ ، فاضطرت إلى أن تسمع لمداعبته وإلى أن تذعن لطلبه حين سألها أن ترقص معه . ثم عرض عليها أن يصحبها فى طريقها إلى الدار بعد أن انتهى الرقص ، فهمّت أن تعتذر وأن تشكر ولكن لحظة حادة من عينه تلك التى كانت تنفذ إلى أعماق نفسها ، فتملأ قلبها رعباً وتهز جسمها هزًّا عنيفاً ، أكرهتها على أن تقبل منه شاكرة له ما عرض عليها .

وفى أثناء الطريق ألقى إليها حبه إلقاء ، لم يتلطف فى لفظ ولم يتظرف فى إشارة . ولم يصطنع رقة ولا ليناً ، ولم يظهر تأثرًا ولا افتتاناً ، ولم يسلك إلى قلبها طريق الغزل التى تعود أن يسلكها العاشقون ، وإنما أنبأها فى لهجة عسكرية بأنه يحبها ويريدها على أن تكون له زوجاً .

وقد ثارت نفسها لهذا الحب الذى يلقى إلقاء ، ولهذا الزواج الذى يصدر به الأمر ، ولكنها خافت ، فلم تعلن ثورتها ، ولم تظهر جموحها ، وإنما آثرت الصمت . فخرجت به عن لا ونعم كما يقول بشار . ووجد الرفق إلى قلب هذا الفتى سبيلا فلم يلح فى هذا اليوم ولم يراجع ، وإنما اكتفى بإلقاء الحب وعرض الزواج ، وانتظر أن تثمر هذه الحبة

التى ألقاها فى هذا القلب الخصب الجديد .

ولم تره الفتاة أسبوعاً كاملاً ، ولم تفكر فيه إلا يوماً أو يومين ضائقة به نافرة منه ، ثم انقطعت الأسباب بينه وبين نفسها حتى كان آخر الأسبوع ، وهمت أن تخرج مع المساء إلى حيث يلهو الفتيان والفتيات بالرقص واستماع الموسيقى فى ميدان غير بعيد من شجرات الصنوبر تلك التى يأوى إلى ظلها العاشقون إذا آثروا أن يخلص بعضهم لبعض نجياً ، على أنها لم تكد تفكر فى الخروج حتى خطرت لها صورة هذا الفتى البغيض فترددت ثم أخذت نفسها بالبقاء ، ثم ترددت ثم غالبها مرح الشباب .

فخرجت تسعى على خوف واستحياء ، ولم تكد تبعد عن دارها خطوات حتى رأت هذا الفتى يسعى إليها بطيئاً متثاقلاً ، ويلقى عليها لحظه كأنه الصخر يلقى على الجسم الضعيف ، فهمت أن تعود أدراجها ، ولكنها سمعت صوتاً وقفها فى مكانها لا تتقدم ولا تتأخر حتى انتهى الفتى إليها ، فأخذ بذراعها وقادها إلى الميدان ورقص معها ما أحب الرقص ، ولم يستطع فتى أن يدنو منها أو يسألها رقصة من الرقصات . حتى إذا بلغ الفتى أربه من الرقص قال لها فى صوته الهادئ الحازم المخيف : « ستعودين الآن وسأصحبك إلى الدار » . ولم تستطع إلا أن تذعن وتعود كما أراد أن تعود .

وفى أثناء الطريق لم يلق إليها حباً ، ولم يعرض زواجاً ، وإنما

أنبأها بأنه سيخطبها إلى أسرتها إذا كان الغد ، وأنها ستقبل الخطبة إذا سئلت ، وقد استقبلت الفتاة هذا الكلام بثورة عنيفة لم تستطع لها إخفاء فقالت لصاحبها فى صراحة حازمة إنها لا تحبه ولا ترضاه لها زوجاً وتود لو خلى بينها وبين الطريق .

وهمت أن تسترسل فى هذا الزجر والتأنيب ولكنه عدل بها عن طريقها فى حركة عنيفة خفيفة معاً ، وحول وجهها نحو المحيط العريض المضطرب المصطخب ، وقال لها فى صوت حازم رقيق : « أترين إلى هذا البحر الذى لا حد له ولا قرار ؟ فإنه سيتزوجك إذا لم أتزوجك أنا ، فاختارى أحبنا إليك وآثرنا عندك وموعدك الغد » . ثم ردها إلى دارها لم يلق إليها حديثاً ولم يسألها عن شىء .

وأنفقت الفتاة ليلتها ووجه نهارها من الغد ، تروعها صورة البحر العريض العميق ، وتروعها صورة هذا الفتى الغليظ العنيف . والغريب أنها لم تتحدث إلى أمها بشىء من حديث هذا الفتى ، لم تفزع إليها ، ولم تستعن بها وإنما كاتمت سرها كتماناً شديداً ، كأنما كانت تخاف إن استعانت بأمها أن تعينها وترفض الخطبة ، فيحمل الفتى عليها هذا الرفض ويزوجها من البحر بدل أن يزوجها من نفسه .

وأقبل الفتى مع المساء فخطب الفتاة إلى أهلها وعرضت الخطبة على الفتاة فلم تستطع لها رفضاً ، ولم تمض أسابيع حتى أمنت الفتاة شر البحر واحتملت شر هذا الزواج الغريب .

على أن هذا كله ليس شيئاً بالقياس إلى غرابة ما كانت تجده هذه الفتاة بعد أن أصبحت زوجاً لهذا الرجل الذى غصبها غصباً ، فهى كانت وما زالت إلى هذا الوقت الذى تحدثنى فيه تبغض زوجها أشد البغض إذا نأت عنه أو قربت منه . لا تستطيع أن تراه ولا أن تسمعه دون أن تنقبض نفسها أشد الانقباض ، فإذا دنا منها متلطفاً فى اعتدال وأخذ معها فى دعابته الهادئة لانت له ودانت فى خوف وإشفاق ، ثم لا يزال بها حتى يسحرها سحراً ، ويختلب قلبها ولبها اختلاباً ، ويرقى بها إلى أقصى ما تستطيع أن ترقى من السعادة والبهجة والنعيم . ثم تنقضى هذه الساعات ، وينقضى معها هذا الحلم الغريب وتفيق الفتاة مبغضة لزوجها أشد البغض نافرة منه أشد النفور . وهو لا يغيظه منها بغض ولا يؤذيه منها نفور وإنما هو راض عن طاعتها له وعنايتها به واستسلامها إليه ، وسعادتها حين يريد لها أن تكون سعيدة .

ثم كانت الحرب ودعى الرجال إلى الميدان ، وكان أسرع من استجاب إلى الدعاء ، وقد ودع امرأته متجهماً لها ، ولم يزد على أن أشار إلى المحيط وقال لها بصوته الهادئ المطمئن : انظرى إليه إنه أحسن زوج للخائنات .

وانقضت أعوام الحرب كلها ومدام ليونتين وفية لزوجها عن حب له ، أو عن خوف منه ، أو عن خوف من هذا المحيط الذى لا حد له ولا قرار .

وكان هذا الرجل يلم بأهله من حين إلى حين أثناء الحرب فيلقى امرأته راضياً وينصرف عنها مطمئناً ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها نقلها إلى باريس واستقر فى هذه المدينة يعمل هو خادماً فى إحدى القهوات وتعمل هى خادماً فى بعض البيوت ، يفترقان إذا أشرق الصبح ويلتقيان إذا أقبل الليل . يفترقان وهى سعيدة بهذا الفراق ويلتقيان وهى شقية بهذا اللقاء ، ويذوقان معاً السعادة الغريبة النادرة فى ساعات قصار حتى تم تكوين الأسرة فكان الولد ، وكان تنشىء الولد وكانت العناية بالتربية والتعليم . وها هى هذه اليوم تنبئنى بأن ابنها قد نجح فى الامتحان ، وأن ابنتها قد ظفرت بالشهادة الابتدائية وأن زوجها قد ربح ورقة من أوراق النصيب . وهى سعيدة بهذا كله ؛ هى سعيدة بأنها قد جمعت شيئاً من مال وأن زوجها مثلها قد جمع شيئاً من مال ، وأن هذه الورقة التى ربحها زوجها أمس قد ضخمت كنزهما وعظمت ثروتهما فأصبحا غنيين عن الخدمة فى القهوات والبيوت . وهى تحب باريس وتريد أن تعيش فيها ، ولكن زوجها يحب بريتانيا ويريد أن يعود إليها ، وسيشترى فيها داراً يشرف منها على المحيط ، وهى مضطرة إلى أن تتبعه لأنها تخافه فى باريس كما كانت تخافه فى بريتانيا . وهى لا تكره أن تنفق ما بقى لها من الحياة بين هذين العدوين ؛ عدوها الذى يمنحها السعادة لحظات من حين إلى حين ، وعدوها الذى يدخر لها الموت إن خالفت قوانين

الحب والوفاء للزوج .

وكانت مدام ليونتين وهى تلقى إلىّ أحاديثها هذه تفلسف فى سذاجة حلوة فتسأل : كيف توجد السعادة فى غير شقاء ؟ وتسخر من هؤلاء الذين لا يرضون عن الحياة إلا أن تكون حرة طلقة ، وتسأل أحق أن الحرية تكفل السعادة للناس وأن الاستبداد لا يعقب الناس إلا شقاء ؟ ولست أدرى أين قرأت مدام ليونتين أن موسولينى قد أصلح إيطاليا ، وأن هتلر قد قوم ألمانيا ، فهى تقول لى انظر يا سيدى إلينا إننا أحرار فى بلادنا ولكن أمورنا مضطربة فاسدة أشد الفساد ، وإن الإيطاليين والألمانيين بعيدون عن الحرية إلى أقصى غايات البعد ولكن أمورهم منظمة صالحة ، فأنا يا سيدى كإيطاليا وألمانيا سعيدة برغم أنى وغيرى من النساء كفرنسا يؤثرون الحرية على السعادة . قلت ضاحكاً : ولكن لو خيرت الآن فماذا تختارين ؟ فسكتت غير طويل ثم قالت : أظن أنى أختار حرية الفرنسيات .

بين الحب والإثم

أصبحت مبتهجة القلب ، راضية النفس ، ناعمة البال ، مبتسمة للنهار المشرق كما كان يبتسم لها النهار المشرق .

وكانت مع ذلك تخفى شيئاً طالما تعودت إخفاءه من اضطراب النفس ، وقلق الضمير . وكان هذا الاضطراب والقلق ، يعتادانها من حين إلى حين . فى مواعيد معينة معروفة هى التى كانت تضرب بينها وبين صاحبها للقاء مرتين فى الأسبوع أو مرات . فكانت تهتم لهذه المواعيد قبل أن يحين حينها ، تهيئ لها وتستعد لاستقبالها ، ولم يكن هذا شيئاً يسيراً ولا هيناً ، ولا محبباً إلى نفسها ، ولكنه كان من هذه الآلام الثقال التى يحتملها الناس ، لأنهم يلقون من ورائها لذات عذاباً . فقد كانت هذه المواعيد آثمة لا يقرها الخلق ، ولا يرضاها الدين . ولا تطمئن إليها أوضاع الناس فيما ألفوا من سنة وتقليد . وكانت صاحبتنا هذه على ذلك تحيا فى أسرة كريمة معروفة لا ترقى إليها ظنة ولا يبلغها ريب . فكان ذلك يشق عليها ويؤذيها ، وربما أرقها ليلة كاملة بما كان يثير فى نفسها من عواطف الألم والندم ، والخوف والإشفاق . ومن عواطف الحرص مع ذلك على هذه المواعيد التى امتزج حبها بنفس هذه البائسة وقلبها ، أشد الامتزاج وأقواه ،

فأصبحت لا تستطيع الحياة إلا لهذه المواعيد ، وأصبحت لا تستقبل يوماً من أيام الأسبوع ولا ساعة من ساعات اليوم إلا فكرت فيما بين هذا اليوم أو هذه الساعة ، وبين يوم الموعد أو ساعته من أمد .

وكانت من أجل هذا كله قد انتهت إلى ما ينتهى إليه أمثالها من هذه الحياة الغريبة التى يتم فيها الاتفاق والائتلاف بين الخوف والرجاء ، وبين الألم والأمل ، وبين السعادة والشقاء . كانت أسعد الناس بهذه المواعيد تنعم بالتفكير فيها ، والسعى إليها . والاستمتاع بما تدخره من لذة وبهجة وأمل ، وكانت أشقى الناس بهذه المواعيد تألم أشد الألم وألذعه حين تفكر فيما تضطرها إليه من خروج على السنة المألوفة ، وإعراض عن الخلق الكريم ، ونقض للعهد المسئول . وقد طالت عشرتها لهذا الشقاء وتلك السعادة التى أصبحت تتنقل بينهما هادئة مطمئنة كما تتنقل فى غرفات بيتها وحجراته . تضيق بالألم والشقاء فتتركها إلى السعادة والرجاء ، تتمثل صاحبها وقد أقبل عليها باسماً مشرق الوجه يسعى إليها فى هدوء ظاهر متكلف ، وهيام خفى مكظوم حتى إذا لقيها طوف معها فى هذه الحديقة أو تلك أو أوغل بها فى هذا الريف أو ذاك ، أو أمعن بها فى الصحراء من شرق الوادى أو غربيه ، ثم يعود بها إلى حيث ألفا أن يعودا حين يتقدم المساء . ثم يودعها بعد حين طويل أو قصير ، وقد ضربا للقائهما موعداً آخر يضمر لهما مثل ما أظهر لهما هذا الموعد من حياة كلها ابتهاج ونعيم .

فإذا قضت حظها من هذا التفكير الحلو انتقلت منه إلى تفكير مر شديد المرارة ، فرأت زوجها الكريم النبيل ، وأبناءها الأغرار الأطهار ، وتمثلت حبهم لها وثقتهم بها واطمئنانهم إليها . وانصراف هذا الزوج إلى ما ينصرف إليه من عمل ، واحتماله ما يحتمل من جهد ، وإقبال هؤلاء الأبناء على ما يقبلون عليه من درس فى نشاط حلو يحبب الحياة إلى الأحياء ، ثم تمثلت مع هذا كله مكانها من الإثم ، وأنها ليست أهلا لهذا الحب ولا جديرة بهذه الثقة ولا خليقة بهذا الاطمئنان . وكانت كذلك قد ألفت الاضطراب بين هذه العواطف المختلفة فكانت ترى راضية ناعمة مشرقة الوجه وإن فى قلبها لألماً لاذعاً وحزناً عميقاً . وكانت ترى أحياناً كئيباً كاسفة البال مظلمة اللحظ وإن من وراء هذا كله لسعادة وغبطة وابتهاجاً .

وقد أصبحت فى هذا اليوم ظاهرة الرضى واضحة الابتهاج تستقبل ساعات النهار مبتسمة للأمل متهيئة للنعيم . متعجلة حركة الفلك مشفقة مع ذلك من طارئ يطرأ أو حادث يلم . مشفقة أيضاً من هذه العيون الخفية التى ترى الناس ولا يراها الناس ، ومن هذه الآذان الخفية التى تسمع الناس ولا يعلم الناس بمكانها ، ومن هذه الألسنة الخفية التى تتلقى عن أعين الغيب وآذانه صوراً وألفاظاً ، فما أسرع ما تسعى بها أو ترسلها فى الهواء إرسالا . على أن صاحبتنا أرادت أن تنصرف فى هذا اليوم عن كل ما يحزن أو يسوء ، وأن

تسبق الموعد إلى الاستمتاع بجمال الربيع وبهجة الحدائق والجنات . وما يمنعها أن تقضى وجه النهار فى مكان من هذه الأمكنة الجميلة الهادئة التى يبسم فيها الزهر النضر ، ويرق فيها النسيم ويسعى من تحتها النيل هادئاً مطمئناً كأنه ساع إلى الرياضة والنزهة لا يلتمس غرضاً ولا يدفعه دافع إلى الإسراف فى الحركة والنشاط . ما يمنعها أن تخلو إلى سعادتها وشقائها فى مكان من هذه الأماكن الهادئة تعكف على نفسها الراضية حيناً وعلى نفسها الساخطة حيناً . فإذا ضاقت بهذه أو تعبت من تلك خلت إلى هذا الزهر الباسم . وإلى هذا النسيم الهادئ وإلى هذا النهر المطمئن فناجتها فى دعة وأمن واطمئنان .

ليس ما يمنعها من ذلك وقد مضى زوجها إلى عمله المألوف . ينفق فيه أكثر النهار ، ومضى أبناؤها إلى مدرستهم أو إلى مدارسهم . لا يعودون منها إلا مع المساء ، واستقل الخدم بأعباء البيت بعد أن تلقوا أمرها فيما يحتاج إلى أن تأمر فيه . وأتيح لها ما يتاح لأمثالها من هذا الفراغ الذى قلما يملؤه الخير وكثيراً ما يملؤه الشر .

خرجت إذن مع الضحى يرافقها صديقاها : السعادة من يمين والشقاء من شمال ، ويسعى بين يديها أمل هادئ مطمئن يبسم لها عن اللذة حيناً وعن التعزية والتسلية حيناً آخر . ولم تكره أن تأخذ صحيفة من هذه الصحف التى تعرض على الناس ، لتنظر ف

قبل أن تنظر فى نفسها ، أو قبل أن تنظر فى الطبيعة حين تخلو إلى الطبيعة ، فقد يكون الإنسان سعيداً كأقصى ما يسعد الناس وقد يكون شقياً كأقصى ما يشقى الناس ، ولكن هذا لا يمنعه ، وما ينبغى أن يمنعه من أن ينظر فى الصحف نظرة قصيرة عجلة ليعرف أنباء أمثاله ، وما يلم بهم من خير وشر . فيعطف عليهم بابتسامة أو شىء من البر ، فما يحسن بالإنسان أن يكون أثِراً . تشغله سعادته أو شقاؤه وآماله أو آلامه عما يلم بمعاصريه من الحوادث والخطوب .

وكذلك انتهت إلى حيث أرادت أن تقضى ساعات من الوقت خالية إلى نفسها ، وإلى الطبيعة . وأنفذت برنامجها أو أخذت فى إنفاذه ، فردت نفسها إلى حيث ينبغى أن تكون مستترة مستخفية حتى تفرغ لها بعد حين . وأغرضت عن الزهر والشجر ، وعن النسيم والعشب ، وعن النيل الهادئ المطمئن ، وأخذت تنظر فى هذه الصحيفة التى اشترتها والتى كانت تقدر أنها لن تنفق معها إلا لحظات معدودات . وهى لم تنفق معها إلا لحظات معدودات حقاً ولكنها مع هذا لم تفرغ لنفسها ولم تتاح سعادتها ولا شقاءها ولم تتاغ هذا الزهر النضر ولا هذا الشجر الملتف ولا هذا النيل الرزين ، ولم تسمع غناء هذه الطيور التى لم تكن تنفك تغرد ، ولم تكن مع ذلك نائمة ولا مغشياً عليها ، وإنما كانت مستقرة فى مكانها الذى اختارته ، وكان الذين يمرون بها — لو أن أحداً مر بها فى هذا المكان الذى اختارته بعيداً عن طريق

المارة — يرون امرأة قد جلست كأنها التمثال لا تأتى حركة ، ولا تنطق بكلمة ، وإنما هى دموع غزار تنهل فى صمت على وجه كان جميلاً ناضراً فأدركه هذا الذبول المؤلم الذى يدرك وجوه الناس ، حين يعصف بقلوبهم خطب أليم .

ولست أدرى أقضت فى مجلسها هذا ساعة أم ساعات ! ولكنها كانت فى بيتها قبل أن يعود زوجها من عمله ، ولم تكد تبلغ هذا البيت حتى أسرعت إلى غرفتها فأصلحت من أمرها وردت إلى وجهها شيئاً من الجمال المصنوع وأخذت نفسها أخذاً عنيفاً حتى اضطرتها إلى شيء من الهدوء واعتدال المزاج . ثم خرجت إلى حيث يلقاها زوجها حين يعود من عمله كل يوم .

ولم يلاحظ زوجها ، ولم يلاحظ أبناؤها ، حين عادوا مع المساء إلا أنها لم تكن مسرفة فى النشاط ولا غالية فى الابتهاج ، وليس هذا بالشيء الغريب ، فقد ألفوا منها هذه الكآبة الخفيفة تغشى وجهها من حين إلى حين . وليس من الطبيعى أن يكون الإنسان فرحاً دائماً مبتهجاً دائماً شديد النشاط فى كل يوم .

ولو أنها استمعت لضميرها واستجابت لما كانت تدعوها إليه طبيعة الأشياء ، والمألوف من سيرة الناس للزمت بيتها هذا المساء ولانتهزت أول فرصة تتاح لها فخلت إلى نفسها فى غرفتها واستسلمت لهذا الحزن

العميق الذى كان يجاهدها جهاداً عنيفاً ليظهر وينفجر ، والذى كانت تجاهده جهاداً عنيفاً ليكمن ويستخفى .

نعم لو أنها استجابت لما كانت تدعوها إليه طبيعة الأشياء أو المألوف من سيرة الناس لفعلت هذا أو لاندفعت فى شىء من هذه الحركات التى ينفق الناس فيها وقتهم ، وينسى الناس بها أنفسهم من لقاء الأصدقاء وزيارتهم أو استزارتهم والتحدث إليهم بما لا يفيد ، والاستماع منهم لما لا يغنى ، واصطناع هذا النوع من النفاق الاجتماعى الشائع الذى يخفى علينا أنفسنا ويخفى أنفسنا على الناس . ولكنها كانت فى هذا المساء جامحة النفس ، ثائرة الضمير ، هائجة الغريزة ، شاردة الإرادة ، فلم تستمع لطبيعة الأشياء ، ولم تستجب للمألوف من سيرة الناس ، ولم تخل إلى نفسها فى غرفتها ، ولم تفر من نفسها إلى صديقاتها وإنما استجابت لشىء واحد ، هو هذه العاطفة التى كانت تلح عليها أشد الإلحاح فى ألا تخلف الموعد الذى ضربته لصاحبها مهما تكن النتائج ومهما تكن الظروف . فإن المواعيد لا تضرب لتنقض ، وإنما تضرب ليوفى بها أصحابها ، وهى تعلم حق العلم أنها إن ذهبت للقاء صاحبها حيث اتفقا أن يكون بينهما اللقاء فلن تجده ، وأنها قد تنتظره ساعة وساعة . وقد تنتظره الليل كله ، وقد تنتظره الدهر كله ، فلن تراه لأنها قرأت نعيه فى تلك الصحيفة التى اشترتها صباح اليوم . ولكن هذا لا يعفيها من الوفاء بالوعد والسعى إلى اللقاء والجد فيه ، وهل كان

هذا النعى الذى قرأته فى الصحيفة صباح اليوم إلا كتاباً من صاحبها ينبئها فيه بأن مكان اللقاء قد تغير لظروف طارئة أقوى منه ومنها ، فلن يكون اللقاء فى هذه الحديقة الجميلة على الضفة الغربية للنيل ، ولكنه سيكون إن أرادت فى ناحية من نواحى الصحراء هناك حيث يستقر الناس بعد أن ينفضوا عن أنفسهم أوزار الحياة ، أو بعد أن تنفيهم الحياة منها نفياً .

أليس قد بين لها صاحبها فى هذا الكتاب مكان اللقاء فى الصحراء ! لقد كان دقيقاً فى كتابه فبين الطريق التى سيسلكها منذ يخرج من داره مع المساء إلى أن ينتهى إلى موعده مع الليل . سيسلك هذا الطريق هادئاً رزيناً حتى إذا انتهى إلى مسجد من مساجد الله عطف عليه فقدم نفسه الآثمة النادمة إلى الله تائبة نائبة مستخزية تلتمس فضلا من عفوه الذى لا حدّ له وحظًّا من رحمته التى وسعت كل شىء .

ثم يخرج من المسجد فيتخذ سيارة ويمضى مسرعاً إلى موعده من الصحراء . وكان عقل هذه البائسة يحاول أن يتسلط على نفسها الجامحة وضميرها الثائر وعواطفها المضطربة .وأن يبين لها أن لا بد مما ليس منه بد ، وأن هذه الأسباب الآثمة قد انقطعت بينها وبين صاحبها منذ عدا عليه الموت أمس ، ولكنه لم يكن يبلغ مما يريد شيئاً . وهذا الليل قد ألقى ظلماته على الصحراء فجللها برداء قاتم كثيف ، وهذه امرأة ماثلة وحدها غير بعيد من هذا القبر الذى لم

تفرغ الأيدى من تسويته إلا منذ وقت قصير ، هى قائمة واجمة لا تدنو من القبر ولا تنأى عنه ، تود لو استطاعت أن تسعى حتى تنتهى إليه فتجثو عنده وتبثه ما يملأ قلبها ونفسها من حزن وحب ، ومن ألم ويأس ، ومن رغبة قوية فى أن تلحق بصاحبه الذى استقر فيه . ولكنها لا تستطيع أن تخطو خطوة إلى أمام كأنما أخذت رجلاها بقيد عنيف ثقيل . وقد يخطر لها فى لحظة قصيرة أن تعود أدراجها فقد أتت لموعدها ، ووفت لصاحبها ، كما يستطيع الناس أن يأخذوا بحظهم من الوفاء . ولكنها لا تستطيع أن تخطو خطوة إلى وراء كأنما أخذت بقيد عنيف ثقيل . ما هذا القيد الذى وقفها فى هذا المكان ومنعها أن تتقدم أو تتأخر ، إنها مع ذلك لا تحس شيئاً ، إنها لتجد ساقيها حرتين ولكنها مع هذا لا تستطيع أن تسعى نحو القبر ولا تستطيع أن تعود من حيث جاءت .

إن قوة هائلة مخيفة مروعة قد قامت بينها وبين القبر هى لا تراها ولا تحسها إلا حين تحاول الخطو إلى أمام فهى حينئذ ترى ما يخيفها ويروعها ويملأ قلبها هولاً ورعباً ويعقد لسانها فلا تقول ، ويطبق فمها فلا تصيح .

وإن قوة أخرى ليست هائلة ولا مروعة ولا مخيفة ولكنها حزينة ملحة فى الحزن ، شاحبة ملحة فى الشحوب ، نحيلة ضئيلة ولكنها مع ذلك قوية لا تراها هذه المرأة إذا التفتت أو تحولت ، ولكنها

إذا همت أن تخطو إلى وراء أحست صوتاً يمزق القلوب ويفرق النفوس يقول لها في حزن : « إلى أين تذهبين ! وحبك ماذا تصنعين به ! وهل بقي لك أمل في الحياة ؟ ». والوقت يمضي والليل يتقدم والسكون من حول هذه المرأة يتصل ملحاً ثقيلا وهي في مكانها قائمة واجمة يثوب إليها عقلها بين حين وحين ، فتحاول الحركة فلا تستطيع ، وتحاول الصياح فلا تستطيع . وتحاول النجوى فلا تستطيع ، وإنما هي تمثال قد حيل بينه وبين الحركة والقول ، ولم يحل بينه وبين الحس والشعور والتفكير .

ثم تضطرب في هذا التمثال الشاعر المحس المفكر رعدة قوية تظهر في أصل نفسه ثم تنتشر مسرعة في جسمه كله . وإذا المرأة قد انطلق لسانها المعقود وفتح فمها المطبق ووجدت القدرة على الحركة واستطاعت إن أرادت أن تخطو إلى أمام ، وأن تخطو إلى وراء كأنما رفعت عنها قيود وأغلال كانت قد فرضت عليها فرضاً ، ولكنها مع ذلك لا تسعى إلى القبر كأنها تحس أنها إثم كلها ، وأن هذا القبر قد أصبح بمنجاة من الإثم الجديد .

كم كانت تحب لو سقت هذا القبر بهذا الدمع الغزير الذي ينهل على وجهها ولكنها مع ذلك لا تفعل . كأنها تحس أن هذا الدمع إثم كله ، وأنه سيستحيل ناراً محرقة إن بلغ هذا القبر ، وما ينبغي لهذا القبر أن تمسه منها النار .

كلا ، لقد حيل بينها وبين صاحبها حياً حين قطع الموت

ما كان بينهما من الأسباب ، ولقد حيل بينها وبين صاحبها ميتاً ، حين قام تمثال الإثم بينها وبين هذا القبر ، إن الطريق حرة مطلقة من ورائها تستطيع أن تسلكها متى شاءت لن تجد من يردها ، ولن تجد ما يعوقها ، إن هذه القوة الحزينة التى كانت قائمة من ورائها تمنعها من الرجوع قد تحولت عن موقفها شيئاً وخلت بينها وبين الطريق ، واتخذت صورة الرفيق الحزين المستخزى الذى يريد أن يرافقها وألا يفارقها ما وجد إلى مرافقتها سبيلا .

وهذا شخص آخر يظهر فى وجهه الحزم والصرامة ولا يخاو وجهه مع ذلك من رفق ولين قد أقبل حتى قام عن يمين هذه المرأة هادئاً رفيقاً تجرى فى وجهه ابتسامة حلوة لا تخلو من كآبة وحزن ، وهو يظهر الاستعداد لمرافقة هذه المرأة وأخذها بالتعزية الحلوة الحازمة ما وجد إلى ذلك سبيلا .

والمرأة تتحول عن موقفها وتسعى بين هذين الرفيقين فى طريقها عائد إلى بيتها . وهما يسعيان معها عن يمين وشمال صامتين لا يقولان شيئاً . ولكنها تفهم عنهما كل شىء ، فأما أحدهما فيحدثها عن زوجها الوفى وأبنائها الأغرار الأطهار ، وأما الآخر فيحدثها عن هذا القبر الذى حال بينها وبين من كانت تحب ، والذى احتوى حبها وأملها ولذتها وسعادتها جميعاً .

وتمضى أيام وأيام ، وتمضى أشهر وأشهر ، وتمضى أعوام وأعوام ،

وتتقدم السن بهذه المرأة ولكنها دائماً لا تنظر إلى يمين إلا رأت شخص الواجب هائلا يظهر فى وجهه الحزم الحلو ، وتجرى فى وجهه الابتسامة الحزينة . ولا تنظر عن شمال إلا رأت شخص الحب هائلا يظهر فى وجهه حزن وخزى ويظهر فى وجهه كذلك تصميم على ألا يفارق هذه المرأة حتى تفارق الحياة .

نفس معلقة

مضوا مصعّدين فى طريق وعرة مدرّجة ضيقة قد التوت حول الجبل ، كأنما كانت تريد أن تأخذه أخذ السوار للمعصم . وكانت عن يمينهم ، وهم يمضون فى هذه الطريق الضيقة بطاء ثقالاً متعثرين ، هوة عميقة سحيقة ملتوية التواء الطريق نفسها ، يتدفق فى قرارها سيل عنيف غزير له هدير يملأ الجو صخباً وضوضاء ، حتى لا يكاد الإنسان يسمع صوت صاحبه إلا فى شيء من الجهد والعناء . وكان على السفحين عن يمين القوم وشمالهم شجر كثيف ملتف . متصل صفيق الظل ، قد علق فى السفحين تعليقاً ، وقام بعضه من فوق بعض حتى لا يكاد البصر يبلغ أعلاه ، كما لا يكاد البصر يبلغ آخره طولاً وقد امتدت أغصانه من هنا ومن هناك ، وتكاثف بعضها فوق بعض حتى التقت وتناصت كما كان يقول القدماء ، أو اعتنقت كما يحب أن يقول المحدثون ، وانعقدت من هذه الأغصان الملتقية الملتوية ، سقوف ضخام لا تنفذ من أثنائها أشعة الشمس إلا فى مشقة وعناء .

وكان القوم يمضون بطاء ثقالا كما قلت يصعدون فى هذا الدرج الوعر ، وتتزلق أقدامهم على هذه الحجارة الملس ، لولا أن عصيهم ذات الأطراف المحددة كانت تسبقهم شيئاً إلى أمام تتحسس لهم

أخبار الطريق ، وتبين لهم مواضع الخطو وتتثبت لهم من الأمن . وكان النهار قد تقدم حتى أدركته هذه الشيخوخة التى يسبغ الأصيل عليها رداء شاحباً حزيناً يبعث فى النفوس شحوباً وحزناً . وكان القوم متعبين ، ولكن التعب لم يستطع أن يفل من عزائمهم ، ولا أن يثبط من هممهم ، ولا أن يردهم عما قصدوا إليه أول النهار من أن يبلغوا منحدر السيل ، وينتهوا إلى هذه الصخور العظام التى يتفجر منها الماء فى منظر رائع رهيب ، ثم ينحدر عنها فى هدير يملأ النفوس هلعاً ورعباً وشعوراً قوياً بالجمال .

وكان صاحبى يسايرهم متابعاً لهم فى الرأى على كره منه ، نشيطاً للحركة والرياضة أول الأمر ، ثم ضيقاً بهذا الحر الثقيل وهذه الطريق الوعرة ، وهذه الخطى المتعثرة ، فلما قرب القوم من هذه الصخور العظام ولم يبق بينهم وبين بلوغها إلا ساعة أو بعض ساعة ، وقفوا يستريحون ويستجمعون ما بقى لهم من نشاط وقوة ليهجموا بهما على هذا الشوط الأخير . ثم تم لهم ذلك فهموا بالتصعيد ، ولكن صاحبى أبى عليهم وأقسم لا يبلغ تلك الصخور ، ولا يبرح مكانه الذى انتهى إليه ، وطال بينه وبينهم جدال مؤلم ، لم يخل من ألفاظ لاذعة ، ولكنه صمم ، وكان حسن التصميم ، لا يتحول عن رأى إذا اطمأنت نفسه إليه ، فتم بينه وبين القوم اتفاق مؤلم مظلم ، على أن يظل فى مكانه منتظراً لهم حتى يصعدوا إلى منبع السيل

فيرضوا منه حاجتهم ، ثم يصاحبهم بعد ذلك فى العودة حين ينحدرون إليه .

ولم يكن صاحبى قد فقد نشاطه كله ، ولم يكن قد استيأس من القدرة على التصعيد ، ولعل نفسه كانت تنازعه إلى المضى مع القوم فيما مضوا فيه ، ولعله لم يبق فى مكانه إلا بعد أن جاهد نفسه جهاداً غير قليل . ولكن ماذا نريد ، لقد عرض له عارض حال بينه وبين المضى واضطره إلى البقاء ، وقد ظل أصحابه بعد ذلك ينكرون عليه عناده ، يحسن بعضهم به الظن فيقول إنه قد أدركه التعب وبلغ منه الجهد ، وقيده الإعياء ، ويسىء بعضهم به الظن ، فيقول إنما هو عارض من سوء الخلق عرض له فصرفه عن هم أصحابه وإنما هى خنزوانته التى تعرض له من حين إلى حين فتفسد رأيه فى الناس ، وتفسد رأى الناس فيه ؛ وتدفعه إلى شذوذ منكر ، يحمل أصحابه على أن يتواصوا بأن يتركوه حتى يثوب إلى رشده أو يثوب رشده إليه . وقد أقسم لى صاحبى ما أثقله جهد ولا قيده إعياء ولا ألمت به خنزوانته ، ولكنه صوت تردد فى الغابة ، فلم يكد يبلغ أذنه حتى انتهى إلى نفسه فمس منها موضعاً دقيق الحس سريع التأثر ؛ وإذا هو يعنى بهذا الصوت ويلتفت إليه ، فيزداد تأثره به ، وإذا هو يحول نفسه كلها نحوه ويقف حسه كله عليه ، وإذا هو يتبين مصدر هذا الصوت ويسأل أصحابه : أيسمعون ؟ وماذا يسمعون ؟ فلا يجد منهم إلا إهمالاً وفتوراً ،

وإعجاباً بهذين السفحين عن يمين وشمال ، وبهذه الهوة ينحدر فيها السيل العنيف وبهذه الطريق تلتوى حول الجبل كأنما تريد أن تطوقه . ثم بهذه الصخور العظام التى خرجوا مع الصبح يلتمسونها . فأما هذا الصوت فقد أنبؤوه فاترين بأنهم يسمعونه ويظنون أنه صوت حشرة من حشرات الغابة . ولما رأى فتورهم وإعراضهم كره أن يلح عليهم واستحيا أن يظهر نشاطه لما لا ينشطون له ، وعنايته بما لا يعنون به . ولكنه ازداد إقبالاً على الصوت وفراغاً له ، وتحليلاً لدقائقه ، واقتنع بأنه إن طال الاستماع له فقد يفهم عنه شيئاً ذا بال . وكان سعيداً حقّاً حين تخفف من أصحابه وحين تركهم يصعدون نحو صخورهم العظام ، وحين انقطعت عنه أصواتهم وحين خلا إلى نفسه فلم يسمع إلا هذا الصوت الملح المتصل فى شيء من التقطع كأنه نداء ، وكأنه نداء حزين فيه شكاة حزينة ، يملؤها ألم لا يكاد يحد . وقد كلف نفسه كثيراً من البحث لعله يتبين مصدر الصوت فلم ير شيئاً . ولم يتبين شيئاً وإنما استيقن أن الصوت يأتى من يمين ، واستيقن أنه ليس صوت طائر معروف ، وليس صوت حشرة معروفة من حشرات الغابة ، وكاد يقطع بأنه ليس صوت حيوان ، وأخذت تصعد من قلبه إلى رأسه فى أناة وهدوء فكرة غريبة لم يكن يقدر أن تخطر له ، ولكنها مع ذلك عرضت له فاضطرب لها اضطراباً شديداً أول الأمر ، وهم أن يصعد فى الجبل لاحقاً بأصحابه ، أو أن ينحدر من الجبل

ولم يبلغ إلا قلبه هو ، ولم يؤثر إلا فى نفسه هو ، فيجب أن تكون هناك صلة بينه وبين مصدر هذا الصوت . ويجب أن تكون الأقدار قد دبرت الأمر تدبيراً محكماً ، وهيأت له هذه النزهة ليقصد إلى هذا المكان وليسمع فيه هذا الصوت ، وليعلم فيه علم هذه النفس ، ويجب أن يكون هناك شيء ذو بال سينتهى إليه . ومن يدرى لعل لهذه النفس رسالة تريد أن تبلغها إلى أحد من الأحياء .

كذلك خرج صاحبى عن طوره خروجاً تامًّا ، كان هادئ الجسم كل الهدوء مضطرب النفس كل الاضطراب ، أو قل كان عاقل الجسم كل العقل ، لا يظهر عليه شيء ينكره الناس ، وكان مجنون العقل كل الجنون لو اطلع الناس على ضميره لأنكروه أشد الإنكار .

أأقام صاحبى طويلاً على هذه الحال ؟ أأقام صاحبى قصيراً على هذه الحال ؟ أنبأنى أنه لم يدر ، ولكنه أحس يداً توضع على كتفه ، وصوتاً يصيح به فى عذوبة لا توصف : أنائم أنت ؟ فالتفت ، فإذا زوجه قد أقبلت منحدرة مع أصحابه وإذا هى تدعوه إلى النهوض .

قال وقد سمع صوتها وفهم عنها : « لا لست نائماً ، ولكنى كنت مغرقاً فى الاستماع لهذه النفس » . قالت زوجه فى شيء من العجب : « أى نفس ؟ » قال : « ألا تسمعين هذا الصوت ؟ لقد سألتك عنه آنفاً فلم تحفلى بسؤالى ، ولقد بقيت لأعلم علمه ، وما أشك

فى أنه صوت إنسانى يصدر عن نفس إنسانية معذبة شاكية » .. قالت زوجه : « ويلى عليك يا صاحبى ! ما أرى إلا أن قراءتك المتصلة ستمضى بما بقى من عقلك . هلم فقد أقبل الليل ولا ينبغى أن يفوتنا القطار » .

ونهض صاحبى فمضى مع القوم كارهاً وهم يسخرون منه ويتندرون عليه ، ويصفون له جمال ما رأوا ، وروعة ما شهدوا ، وهو يسمع لهم حيناً ويذهل عنهم حيناً ، ثم كانت العودة وكان الاضطراب فيما يضطرب فيه المصطافون فى مدينة فرنسية من مدن الجبل إذا أقبل الليل .

ثم أصبح صاحبى حائراً لا يدرى ، أيتحدث بحديثه إلى زوجه أم يكتمها إياه ؟ ذلك أنه كان يشفق أن يروعها إن تحدث إليها بهذا الحديث ، وكان يشفق أن يسوء ظنها به أو أن يسوء رأيها فيه ، أو أن تنتهى من أمره إلى أنه مجنون قد فقد الرشد وأضاع الصواب . على أنه آثر أن يخفى هذا الحديث وأن يفارق هذه المدينة التى كان كل شىء فيها يدفعه إلى الجبل وطريقه الملتوية وأغصانه المتناصية ، وهذا الصوت الذى يتردد متصلا معلناً للحزن معرباً عن الشكاة .

وما هى إلا أن يظهر الضجر بالمقام فى هذه المدينة ، ويزين الانتقال إلى مدينة أخرى ، ويبذل الوعود والأمانى ، ويتلطف فى السيرة والحديث ، وينثر المغريات من حوله نثراً ، حتى انتهى إلى

ما أحب وفارق هذه المدينة التي كره المقام فيها كرهاً شديداً . . .

قصد مع أسرته إلى قرية هادئة من قرى المحيط ، ولقيني في تلك القرية وحدثني فيها بهذا الحديث . ولما انتهى منه إلى حيث انتهيت ، لاحظ في وجهي إنكاراً وسخرية ، فرابه ذلك بعض الشيء ، وقال إنك لتذهب مذهب القوم وتتهمني في عقلي وما تشك في أني مجنون ، أو مقبل على الجنون . وهممت أن أرد عليه وأن أزيل ارتيابه ، فلم يحفل بي ، ولكنه مضى في حديثه قائلاً : « يجب أن تستمع لآخر الحديث ، وأن تجعل بيننا عهداً لنحققه ، فإن انتهينا إلى صدقه اعترفت معي بأني سمعت نفساً إنسانية تتكلم ، وإن انتهينا إلى كذبه اعترفت معك بأني كنت مريضاً مجنوناً أو مشرفاً على الجنون » . قلت : وكيف ذاك ؟ قال : « إن هذه النفس التي سمعت صوتها في الغابة عرضت لي بعد ذلك في النوم وحملتني رسالة إلى صديق تعرفه وأعرفه » . قلت ، وقد ازداد إنكاري لصاحبي ، ولكني مع ذلك أظهرت العناية والدهش : « ماذا تقول » ؟ قال : « أقول إن هذه النفس تراءت لي في النوم ، وأنبأتني بأني لم أخطئ فيما قدرت حين استمعت لها وبأنها نفس إنسانية وبأنها نفس فلانة ، أتعرفها » ؟ قلت : « نعم أعرفها لقد شيعناها إلى القبر منذ أشهر » . قال : « فهل تعرف أن بينها وبين فلان صلة » ؟ قلت : لا . وما كان ينبغي أن توجد بينهما صلة . قال : « فإنها أنبأتني بأنها قد كانت له خليلة ، وبأن أول أمرهما كان منذ أعوام

فى هذا المكان الذى سمعتها فيه ، وبأنها بعد أن فارقت الحياة ومضت فى طريقها المجهولة ، إلى غايتها المجهولة انقطعت بها الطريق فى هذا المكان . وألقى إليها أنها ستبقى هنا وحيدة تنتظر صاحبها حتى إذا أدركتها نفسه بعد وقت طويل أو قصير مضتا معاً فى طريقهما المجهولة إلى غايتهما المجهولة ، ولكنهما يجب على كل حال أن يستأنفا سفرهما من هذا المكان الذى استكشفا فيه قلبيهما » . وقلت وقد أدركنى من حديث صاحبي شيء يشبه الذعر ، إن لم يكن هو الذعر : « ما رأيت كاليوم حديثاً عجباً » . قال : « بل قل ما رأيت كاليوم جنوناً عجباً ، فهذا أصدق فى الإعراب عما تريد . ولكنا سنلقى صاحبنا إذا عدنا إلى أرض الوطن . وسنتلطف له لنعلم أكان بينه وبين هذه السيدة شيء ، وسنتبين أكان حديثى هذا عرضاً من أعراض الجنون أو أثراً من آثار الأعصاب المريضة المكدودة » . قلت : ولكنك لم تحدثنى بهذه الرسالة التى تحملها إلى صاحبنا عن هذه النفس . قال : « وبماذا تريد أن أحدثك. إنها تتعجل مقدمه عليها ، وماذا يملك المسكين من أمره ، ومتى استجاب الأحياء لدعاء الموتى ، ومتى هانت الحياة على أصحابها ، وإن استحلفهم الموتى بأصدق الحب وأبلغه فى القلوب أثراً » .

ثم عدنا بعد أسابيع إلى أرض ، الوطن ، ولست أشك فى أن صاحبي قد كان حدثنى ببعض الهذيان ، ولم أفكر قط فى أن أحقق حديثه ،

ولكنه هو فكر فى ذلك وسعى إلىّ وألح علىّ وسار معى إلى صاحبنا . ولكن ماذا ؟ إن صاحبنا مريض وإن مرضه ثقيل ، وإن الأطباء يشفقون عليه أشد الإشفاق . قال صاحبى وقد خرجنا من عنده دون أن نتحدث إليه فى شىء : ما أرى إلا أن الرسالة قد انتهت إليه من طريق غير طريقى . ومع ذلك فسنعوده إذا كان الغد . ثم عدناه مرة ومرة ومرة وعرض له صاحبى ببعض الحديث فما شككنا فى أنه قد كان من تلك السيدة على أمر . ثم استحال التعريض إلى تصريح فما شككنا فى أن صاحبى قد قال حقًّا ، ولكن صاحبى لم يبلغه الرسالة ؛ لأن الرسالة كانت قد سبقت إليه ، ولأنه لم يكن فى حاجة إلى من يستعجله ، ولأننا لم نلبث إلا أياماً حتى شيعناه إلى مستقره الأخير .

ليت شعرى أكان لغواً ما قال صاحبى؟ ليت شعرى أكان جدًّا ما قال صاحبى ؟ ليت شعرى أأدركت نفس صاحبنا تلك النفس المعلقة فى غابة من غابات فرنسا على جبل من الجبال حول ذلك السيل الذى ينهمر فى قوة وعنف فيملأ الجو ضجيجاً وعجيجاً واصطخاباً ، ويتميز منه على ذلك الصوت المتصل الحزين الذى يعلن عن اللوعة ويعرب عن الشكاة .

ثأر بيرينيس

لست أدرى كيف وصلت أخبار الدنيا إلى دار الموتى ، ولا كيف وصلت أخبار الموتى إلى أهل الدنيا . ولكن صاحبي حدثنى حديثاً عجباً ، ولم يرد أن ينبئنى كيف استقام له هذا الحديث ، زعم لى أن خلافاً عنيفاً أليماً ثار بين حبيبين فى دار الموتى فأفسد الأمر بينهما إفساداً عظيماً كاد يستحيل إصلاحه ، لولا أن أديباً دخل بينهما فردهما إلى شيء من الصلح القلق والتوافق الموقوت .

وكان ذلك فى اليوم العاشر من هذا الشهر ، بعد أن نزل إدوار الثامن عن ملك إنجلترا وما وراء البحار وإمبراطورية الهند لأخيه الملك الجديد . كان ذلك فى الصباح أو فى المساء ، وفى أى لحظة من لحظات النهار أو من لحظات الليل ، فقد زعموا أن ليس فى دار الموتى ليل ولا نهار ، وإنما الزمان عندهم فكرة تجيلها النفس ويتمثلها العقل ولا تصورها حركة الأرض ولا حركة الشمس ، ولا اضطراب كوكب من الكواكب ولا دوران فلك من الأفلاك .

كان هذا الخلاف بين هذين الحبيبين فى لحظة من ذلك اليوم حين انتهى نبأ انحلال الأزمة البريطانية إلى دار الموتى ، وحين علم به تيتوس القيصر الإمبراطور وصاحبته بيرينيس ملكة فلسطين !

وأنت تعلم من غير شك أنهما هبطا إلى مستقرهما الأخير منذ تسعة عشر قرناً أو ما يقرب من تسعة عشر قرناً . فقد مات تيتوس القيصر الإمبراطور فى أواخر القرن الأول للمسيح سنة إحدى وثمانين ، وماتت بيرينيس بعده بقليل . وإذا جارينا الشاعر الفرنسى العظيم راسين فقد ماتت حزناً عليه ، أو تعمدت الموت لتلحق به . لا يخبرنا الشاعر بذلك . ولكنه ينبئنا فى قصته الخالدة بأن بيرينيس كانت تريد الموت استجابة لليأس ، فعزم عليها عاشقها القيصر الإمبراطور لتبقين . وأنذرها أنه لاحق بها إن ماتت وقاتل نفسه إن قتلت نفسها . وكانت الملكة الفلسطينية مؤثرة لحبيبها العظيم على نفسها ، فآثرت البقاء لا حبًّا فى البقاء ، بل إيثاراً لعاشقها به ، وعاشت لا لتنعم بالعيش بل لينعم الرومانيون بحياة قيصرهم الإمبراطور ، وأكبر الظن أن موت الإمبراطور قد يسر الأمر على حبيبته وأحلها مما قطعت على نفسها من العهود والمواثيق ، فأسرعت إلى الموت لا حبًّا فى الموت ، ولكن رغبة فى لقاء خليلها ، حيث لا تثار الاعتراضات على حبهما فى مجلس الشيوخ الرومانى ، ولا فى ملاعب التمثيل ولا فى أسواق المدينة الخالدة . وأكبر الظن أن العاشقين التقيا مبتهجين بهذا اللقاء ، فرحين بهذه السعادة الباقية التى لا تتاح للناس فى هذه الحياة الفانية . وأكبر الظن أيضاً أنهما شغلا بحبهما عن كل شىء وعن كل إنسان ، وشغلا بحبهما عن شئون الناس خاصة ، لم يصرفا عنه لحدث من الأحداث ،

ولا عظيمة من العظائم ، بل لم يصرفا عنه لما كان يكتب عنهما المؤرخون فى العصور القديمة أو العصور الحديثة . ولعلهما لم يصرفا عنه إلا مرة واحدة فى القرن السابع عشر ، حين كتب راسين قصته الرائعة وقدمها إلى الملعب ، وحين كتب كورنى قصته البارعة وعرضها على النظارة ، وحين اختلف الناس فى أمر هذين الشاعرين وفى أمر هاتين القصتين كما كانوا يختلفون فى أمرهما وفى آثارهما دائماً .

وقد كان تيتوس القيصر الإمبراطور أديباً ظريفاً ومثقفاً مترفاً ، وكان يحب الفن ويشغف بالأدب ويفتن بالفلسفة ، وكانت بيرينيس من أذكى بنات إسرائيل وأعظمهن حظًّا من ثقافة ودقة ورقة وترف ، وقدرة على استئثار بعقول الرجال والاختلاب لألباب الملوك . فجائز أن يكون اختلاف الناس فى راسين وكورنى وفى قصتيهما قد شغلهما لحظة عن حبهما الخالد وسعادتهما المتصلة ، ولكن المحقق — فيما يقول صاحبي — أنهما لم يلبثا أن عادا إلى ما كان فيه من الغزل والدعابة ، ومن الاستمتاع بنعيم الحب الذى لا ينغصه الصد ولا يفسده الهجر ولا تكدره وشاية الوشاة .

وقد كانت الثورة الفرنسية ، وكانت حروب نابليون ، وكانت الأحداث الجسام التى اتصلت بين الناس . وكانت الحرب الكبرى ، وكان ما كان بعد هذه الحرب ، والعاشقان لا يحفلان بشىء من ذلك ولا يأبهان له ولا يفكران فيه ، حتى كان يوم الخميس الماضى ،

وإذا هما يردان إلى أمور الناس ويشغلان بها ويتأثران بأنبائها أشد التأثر ، حتى تكاد الأسباب بينهما أن تنقطع ، وحتى توشك المودة بينهما أن تزول لولا أن تدخل هذا الأديب فاضطرهما إلى خطة ، هى إلى الهدنة أقرب منها إلى الصلح ، وهى إلى الموادعة والانتظار أقرب منها إلى المودة والصفاء ، وأنت بالطبع تعلم أن تيتوس قد عرف صاحبته الجميلة الخلابة فى فلسطين حين كان مع أبيه يحاربان اليهود ويعيدانهم إلى طاعة روما . فأحبها وأحبته وهام بها وهامت به وكانت بينهما صلات لهج بها الجند . وكثر فيها كلام أهل الشرق فى فلسطين والشام ومصر . ولم يحفل العاشقان بلوم اللائمين ولا سخط الساخطين ، وإنما مضى كل منهما فى حبه لا يلوى على شىء ولا يقف عند غاية ، واجتهدت بيرينيس فى أن تحبب سلطان الرومان إلى أهل مدينة القدس الثائرين فلم تفلح وأخطأها التوفيق كما أخطأ أخاها . فانحازت إلى الفاتحين وآثرت الحب على الوطن ، وابتهجت بظفر الرومان وعادت مع الظافرين إلى روما وسكنت دار تيتوس أثناء ولايته للعهد ، ولهج بذلك أهل روما وكثر فيه حديثهم واشتد له إنكارهم . فاضطر الإمبراطور إلى أن يأمر تيتوس ولى عهده بقطع هذه الصلة ونفى هذه العاشقة عن الأرض الإيطالية ، وأذعن ولى العهد لأمر أبيه وأخرج صاحبته إلى الشرق ، وأذعن لسلطان روما وقوانينها ، فلما مات أبوه وارتقى هو إلى العرش وظنت الملكة أن قد زالت المصاعب ومهدت

الطريق عادت إلى روما ولكنها لم تظفر من عاشقها الإمبراطور بشيء .

وقد كتب أحد المؤرخين الرومانيين يقول : « إن تيتوس الذى كان يحب بيرينيس كما كانت تحبه ، والذى كان قد أطمعها فى الزواج قد أخرجها من روما برغمه وبرغمها أيضاً » .

ومن هذه الجملة القصيرة التى كتبها المؤرخ الرومانى . بل من آخر هذه الجملة استقى راسين قصته الرائعة . فصور الصراع بين الحب والواجب أبرع تصوير وأروعه ؛ ونصر الواجب الوطنى فى القصة كما نصره التاريخ أيضاً ، فقد كان القيصر الإمبراطور محبّاً لملكة فلسطين حبّاً ملأ قلبه وملك نفسه واستأثر بأهوائه وعواطفه ولكنه على ذلك لم يستطع أن يتخذها له زوجاً لأن قوانين روما لم تكن تسمح بهذا الزواج .

ولم يكن حب الملكة للإمبراطور هيناً ولا فاتراً ولا يسيراً ، ولكنها على ذلك قد أذعنت لسلطان الواجب وخضعت لقوانين روما ، وانصرفت عن هذا الزواج الذى عملت له وعاشت بالتفكير فيه والطموح إليه أعواماً طوالا . وكان القيصر الإمبراطور يقدر حق القدر أنه يضحى فى سبيل القانون والواجب تضحية خطيرة لن يهملها التاريخ ولن تقصر الأجيال فى الانتفاع بها والإكبار لها واتخاذها موضوعاً للموعظة والاعتبار . وكانت الملكة فى حقيقة الأمر لا تفكر إلا فى نفسها

وفى حبها ولا تحفل بالقانون ولا بالواجب ولا بالتاريخ . ولكنها انتهت آخر الأمر إلى مثل ما انتهى إليه قيصر ، فضحّت بالحب فى سبيل الواجب والقانون وضربت للناس مثلا قويًّا فى تصوير التضحية والإيثار .

قال صاحبي فلما انتهت إلى العاشقين فى دار الموتى أنباء الأحداث الجسام التى حدثت فى وندره ، نسيت بيرينيس روما وقوانينها ، وواجبات القيصر الإمبراطور وكل ما كان بينها وبين صاحبها من الحوار الرائع الذى صوره راسين ولم تذكر إلا شيئاً واحداً وهو أنها امرأة عاشقة ضحى بها خليلها فى سبيل شىء آخر غير العشق . وأنت تعرف الغيرة إذا اضطرمت نارها فى قلوب النساء كيف تلتهم كل شىء وكيف تمتنع على كل روية وتستعصى على كل تفكير . فقد ثارت إذن بيرينيس ثورة هائلة ، وجحدت كل ما كان بينها وبين صاحبها من حقائق الود ووثائقه ، وزعمت أن القيصر الإمبراطور لم يكن إلا جاحداً خائناً غادراً لا يرعى للحب حرمة ولا يرجو للوفاء وقاراً . وكانت من قبل تظن أن الواجب الاجتماعى فوق الواجب الفردى ، أو أن إخلاص الرجل لوطنه يجب أن يكون فوق إخلاصه لنفسه ولمن يحب ، وأن الرجل الذى يضحى فى سبيل الوطن بحياته خليق أن يضحى فى سبيل الوطن بعواطفه وميوله وأهوائه ، فقبلت من عاشقها ما قبلت ، وآمنت بمثل ما كان يؤمن به من أن الوطن

فوق الأشخاص ، وأن الطاعة لقوانين روما فوق الطاعة لقوانين الحب والغرام . ولكنها رأت أن امرأة أخرى لم تكن ملكة ولا قريبة من الملكة قد صارعت دولة فغلبتها . وقارنت بيرينيس بين الإمبراطورية الرومانية التى ضحى بها فى سبيلها منذ تسعة عشر قرناً وبين الإمبراطورية البريطانية فراعتها المقارنة وملأت قلبها غيظاً وحنقاً . فأين تقع الإمبراطورية الرومانية وملك قيصر من الإمبراطورية البريطانية وملك إدوارد الثامن ؟

ومع ذلك فقد ضحى إدوارد الثامن بالملك ونزل عن العرش ، وآثر صاحبته على ملك لم يتح لأحد مثله . فقد كان إدوارد الثامن إذن أصدق حبًّا وأخلص وفاء من تيتوس القيصر الإمبراطور ، وكانت صاحبته أعظم حظًّا وأسعد طالعاً من بيرينيس ذات الحسن الرائع والجمال البارع . ومع ذلك فقد كانت بيرينيس أدنى إلى الشباب وأعظم حظًّا من الجمال ، وكانت صاحبة عرش لا من عامة الناس ولا من أوساطهم ! فترى إلى نتيجة هذه المقارنة وإلى أثرها فى قلب امرأة عاشقة غالية فى العشق ، لا تعرف فى الحب هوادة ولا ليناً ، ولا تقبل فيه موادعة ولا مصانعة .

وقد لقى القيصر الإمبراطور كثيراً من الهول وبذل كثيراً من الجهد ، واحتمل كثيراً من العناء ، ولم يستطع أن يوفق إلى إرضاء صاحبته ولا إلى استعطافها عليه واجتذابها إليه ، فقد صور لها أن

حاجة البريطانيين إلى ملكهم ليست كحاجة الرومانيين إلى إمبراطورهم ، لأن الملك فى هذه العصور الحديثة رمز للسلطان ، يملك ولا يحكم ، فهو يستطيع أن يتخلى عن العرش إذا عجز عن النهوض بأثقاله دون أن يسىء إلى الوطن أو يعرّض مصالحه للخطر والضياع ، على حين كان الإمبراطور الرومانى يملك ويحكم ويدبر الأمر كله تدبيراً فى دقائقه وجلائله ، فكان نزوله عن العرش أبعد أثراً فى حياة الدولة من نزول الملوك المحدثين عن عروشهم .

وقد صور تيتوس لصاحبته أن فكرة الواجب فكرة مرنة تتغير مع الزمن وتتشكل بأشكال البيئات المختلفة ، وأن تصور المحدثين للواجب ليس كتصور القدماء له .

وقد عرض تيتوس على صاحبته أن تسعة عشر قرناً تكفى لتغيير آراء الناس فى كل شىء ، ولتغيير ما يكون بين الفرد والجماعة من الصلات . فقد كانت الجماعة فى العصور الأولى كل شىء ولم يكن الفرد شيئاً . فأما الآن فقد أخذ الأفراد يوجدون ويؤمنون بأنفسهم ، ويرون أن عليهم واجبات ويرون أيضاً أن لهم حقوقاً ، وهم مستعدون لأداء الواجبات ولكنهم غير مستعدين للنزول عن حقوقهم .

وقد عرض نيتوس على صاحبته أشياء أخرى لا نكاد نفرغ من إجمالها فضلا عن تفصيلها ، ولكنه لم يستطع أن يقنعها ولا أن يردها إلى الرضى والهدوء ، فهى كانت تسخر من هذا كله ، بل تسخط

على هذا كله ، وترى أنه تحكيم للعقل فيما لا ينبغى أن يحكم فيه العقل . تحكيم العقل فيما هو من شئون القلب وحده . وكان يزيد سخطها وثورتها ويملؤها غيظاً إلى غيظ وحنقاً إلى حنق أنها قد انخدعت بهذا الحب الكاذب نحو عشرة أعوام فى الحياة الدنيا وتسعة عشر قرناً فى الحياة الآخرة لم تشك فيه ولم ترتب بصاحبه ، فمنحته حبها وقلبها وأخلصت له فى الدنيا والآخرة ، وفى السر وفى الجهر ، ثم تبين لها فى لحظة قصيرة جداً أنه لم يكن عاشقاً ولا صادقاً فى الحب ، وإنما كان خادعاً ومخدوعاً فى وقت واحد . وما هذا الحب الذى لا يضحى فى سبيله بالممالك والعروش ؟ بل ما هذا الحب الذى يضحى به فى سبيل الممالك والعروش ؟

ولست أدرى أتذكر ذلك المنظر الرائع الذى يصور فيه راسين ثورة الملكة وغضبها وانصرافها عن القيصر الإمبراطور بعد أن استيأست منه ومن حبه ، وهى تعلن إليه أنها تفارقه لتلقى الموت . فقد أعادت بيرينيس هذا المنظر نفسه فى دار الموتى ، وأعلنت إلى تيتوس مثل ما أعلنت إليه فى روما ، وارتاع قيصر له كما ارتاع فى الحياة الأولى ، لولا أن قهقهة عالية ردت العاشقين إلى صوابهما بعض الشىء ، سمعاها فالتفتا فإذا فيلسوف أديب كان يسمع لهما ويعجب بهما ، وليس يدرى صاحبى من أمر هذا الفيلسوف إلا أنه فرنسى محدث عاش بعد قصة راسين . وقد دهش العاشقان . لمكانه منهما ودهشا

لضحكه المتصل وقهقهته المستمرة، ونظرا إليه فى شىء من الوجوم ، ولكنه قال للملكة وهو يمضى فى ضحكه : بم تنذرينه يا مولاتى ؟ أتنذرينه بالموت فإنك ميتة ، أم تنذرينه بالحياة ! فكيف السبيل لك إلى استئناف الحياة ؟

هنالك سقط فى أيدى العاشقين ، ولكن الفيلسوف لم يمهلهما ولم يخل بينهما وبين التفكير ، وإنما مضى فى حديثه وضحكه معاً وهو يقول : « ولن تستطيعى يا مولاتى أن تهجريه ولا أن تطيلى الإعراض عنه ، فقد اتصلت أسباب الحب بينكما فى الحياة الأولى ، واستقبلتما هذه الحياة الثانية عاشقين ، فستظلان على ما كنتما عليه إلى آخر الدهر إن كان لدهر الموتى آخر . ستلتقيان فتختصمان حيناً ويصفو كلاكما لصاحبه حيناً آخر ، ولن ينفعكما ولن يضركما ما يختلف على الأحياء من الأحداث والخطوب . فالأحياء وحدهم هم الذين يتطورون ويتغيرون ؛ فأما نحن فقد قضى علينا ألا نتطور ولا نتغير لأننا استنفدنا حظنا من التطور والتغير قبل أن نصل إلى هذه الدار . ولو أنى ملكت أمور الأموات والأحياء لقطعت الصلة بيننا وبين أهل الدنيا قطعاً . فما أكثر ما نعلم من أخبارهم فنحزن حين لا ينفع الحزن ، ونفرح حين لا يغنى الفرح . ما أكثر ما أعلم من أخبار الفلاسفة والأدباء . فأفرح لأنهم بلغوا ما لم أبلغ واستحدثوا ما لم أحدث واستكشفوا ما لم أستكشف . وأحزن لأنى عاجز عن أن

أشارك فيما يشاركون فيه وآتى بعض ما يأتون ، وأضيف إلى بعض ما يستحدثون .

حقًّا لست أدرى كيف السبيل إلى ما نحن فى حاجة إليه من الراحة التى لن نظفر بها ما دامت أخبار الأرض تهبط إلينا أو تصعد ، فلست أدرى أين نحن بالقياس إلى الأرض ، أمرتفعون فى مكان شاهق أم منخفضون فى مكان سحيق ، ومع ذلك فما يحزنك يا مولاتى . لقد كنت تبتغين حب قيصر فقد ظفرت به فى الحياة وقد ظفرت به بعد الموت ، فرّق الدهر بينكما عامين ثم جمعكما الموت إلى الأبد . أفتعلمين ما خطب العاشقين الذين جمعت الحياة بينهما الآن ؟ أواثقة أنت بأنهما سعيدان بهذا الحب ؟ أمطمئنة أنت إلى أن حياتهما لن تتعرض لسأم ولا ندم ولا اختلاف ولا افتراق ؟ كلا يا سيدتى ، انتظرى وتمهلى ولا تغاضبى صديقك ولا تتنكرى له ، حتى إذا أقبل هذان العاشقان بعد حياة طويلة ورأيتهما هنا ينعمان بمثل ما تنعمان به من الحب ، ويسعدان بمثل ما تسعدان به من الود ، فهنالك وهناك فحسب ، تستطيعين أن تغبطيهما وتحسديهما . وهنالك ، وهنالك فحسب ، تستطيعين أن تظنى أنهما كانا أحسن منكما حظًّا . ومع ذلك فلم لا تقدرين أن ظفر هذه السيدة بما لم تظفرى به وانتصارها على قلب صاحبها واستئثارها به من دون العرش ، إنما هو انتصار لك وأخذ بثأرك من الرجل الذى غالبك فغلبك ، وطاولك فكان له عليك الطول .

لم تفكرين فى نفسك وحدك ، وفى خليلك وحده ، ولا تفكرين فى نفسك على أنك رمز للمرأة ، وفى خليلك على أنه رمز للرجل . فكرى على هذا النحو يا مولاتى يهن عليك الخطب ويسهل عليك الأمر ، ويكن ظفر هذه السيدة المحدثة ظفراً لك أنت وانتصارها انتصاراً لك أنت ، ويتحول حزنك سروراً وغضبك رضى . فكرى على هذا النحو ترى أن هذه السيدة إنما ثأرت لك ولم تستأثر دونك بالانتصار . ثم فكرى آخر الأمر فى أن انتصار هذه السيدة فى عرف الأحياء لا يتم حتى يسجله التاريخ ويتناوله الأدب شعراً ونثراً ، فيصوغه المؤرخون كما صاغ المؤرخ الرومانى قصتكما فى هذه الجملة القصيرة الرائعة ، ويصوغه الأدباء كما صاغه راسين فى آيته البيانية الخالدة ، وكما صاغه كورنى فى قصته البائسة التعسة ، ويختلف الناس فى أمر الأدباء الذين يصوغونه كما اختلفوا فى أمر الشاعرين الفرنسيين ، ويتناقل الناس شعر الأدباء فيهما فيدرسوه فى المدارس ويعرضوه فى الملاعب كما يدرسون قصة راسين ، وكما يعرضونها على النظارة مرات فى كل عام وفى جميع أقطار الأرض ، وبلغات مختلفة وعلى أنحاء متباينة .

إن خلودكما يا سيدتى محقق واقع ، ضمنه التاريخ وضمنه الشعر وضمنه الأدب عامة وأصبح جزءاً من تراث الإنسانية ، فانعمى بذلك واطمئنى إليه ولا تغضبى ولا تثورى إلا يوم ترين البطلين الجديدين

قد ظفرا بمثل ما ظفرتما به من الخلود . قالت بيرينيس ، وقد سكت عنها الغضب ، وثابت إليها دعابتها القديمة فتضاحكت متهالكة . قالت : « فكم من الأعوام تريد أن أنتظر ؟ » قال الأديب الفيلسوف : « بل كم من القرون يا سيدتى ، فقد مثلت قصة راسين بعد أن حدثت لكما الحادثة بأكثر من ستة عشر قرناً » . قالت بيرينيس : فتريدنى على أن أصبر على هذا الإثم ستة عشر قرناً ؟ قال تيتوس القيصر الإمبراطور : وأين تقع ستة عشر قرناً من الأبد الذى لا يفنى ؟

ثم أقبل نحو صاحبته مبتسماً وتلقته صاحبته مبتسمة مبتهجة ، وقد عفت عنه وأسمحت له ، وشملهما الفيلسوف الأديب بنظرة ساخرة يملؤها الإشفاق والحنان وهو يقول : « حقاً إن الإنسان لسخيف حياً وميتاً » .

قلت لصاحبى : ما أظن فيلسوفك هذا إلا فولتير أو أناتول فرانس .

الخيال الطارق

أقبل صاحبي وجه النهار مرتاعاً حائل اللون ، شاحب الوجه ، حائر الطرف ، طائر اللب ، كأنما ألم به طائف من الجن فروعه ترويعاً ، وأخرجه عن ذلك الطور الهادئ الرزين الذى كنت أعرفه منه إذا لقيته فتحدثت إليه ، واستمعت لأحاديثه المطمئنة العذبة الخصبة .

أقبل مرتاعاً لا يكاد يبين إذا تحدث أو هم بالحديث ، بل لا يكاد يستقر فى مجلس ، بل لا يكاد يمسك جسمه من رعدة كانت تلم به من حين إلى حين فتهزه هزاً عنيفاً ، وتذكر بقول ذلك الشاعر القديم :

وإنى لتعرونى لذكراك هزة   كما انتفض العصفور بلله القطر

وأشهد لقد أنفقت كثيراً من الجهد ، واصطنعت فنوناً من الحيلة ، لأرده إلى ما ألفت فيه من دعة وأمن وهدوء ، ولقد افتقدت فى تلك الساعة بعض هؤلاء الشيوخ الذين يتلون العزائم والرقى ، بعد أن أخفقت أو كدت أخفق فيما كنت أحاول من رده إلى الوقار والصواب . ولكنى ظفرت آخر الأمر بما كنت أحاول ، واستطعت أن أتحدث إلى صاحبي ، وأن أسأله عن مصدر هذا الاضطراب العنيف

الذى أصابه وما عرفته عرضة لاضطراب يصيب العقل أو يصيب الجسم . قال وهو ذاهل أو كالذاهل : إثم هذا على أبى العلاء أيها الصديق ، فلولا أنى نظرت فى كتاب من كتبه آخر الليل ، لأذود به هذا الأرق الذى ألح على إلحاحاً لما أصابنى ما ترى ، بل لما أصابنى ما لم تر من تلك الأهوال التى ألمت بى ، واصطلحت على حتى نفرتنى من دارى وأزعجتنى عن أهلى ، ودفعتنى إليك فى هذه الساعة التى لم أتعود أن أسعى فيها إليك . وثق بأنى قد خرجت من دارى معتزماً ألا أعود إليها ، وقد أمرت أهلى أن يلتمسوا لنا داراً أخرى ، وأزمعت الرحلة عن القاهرة أياماً ، حتى إذا تم لهم ما أريد من التحول عن هذه الدار الموبوءة ، عدت إليهم فى دارنا الجديدة ، لعلى أن أجد فيها ما أنا فى حاجة إليه من الدعة وراحة البال . قلت : « ما أراك إلا مريضاً تحمل مرضك على أبى العلاء وتكلفه من ذلك ما لم يقترف ، وتكلف أهلك من آثار هذا المرض شططاً ، ومع أنى لم أعرف بعد هذه الأهوال التى ألمّت بك فأزعجتك عن دارك ودفعتك إلى ما تحاول من فراق القاهرة، فلست أرى بأساً بهذا الرحيل فقد طال مقامك فى مدينتنا ، وقد احتملت من الجهد والعناء فى عملك ما يضنى الأصحاء الأقوياء ، فكيف برجل عليل ضئيل مثلك ، فارحل مصاحباً ولكن حدثنى عما ألم بك من الهول » ؟ قال : « مصدره رسالة الغفران يا سيدى ، فليت أبا العلاء لم يكتب رسالة الغفران »

قلت : « لا تقل هذا ولا تكن أثراً فإن لغيرك فى رسالة الغفران لذة ومتاعاً ، وإذا كانت قد سلطت عليك الهول الذى لم أعرفه بعد ، فإنها قد أتاحت لقوم آخرين فى الشرق والغرب من الشهرة وبعد الصوت ما لم يسلط عليهم هولا من الأهوال ، ولم يغر بهم خطباً من الخطوب . ولكن هات حديثك » . قال : « ما أشك فى أن أبا العلاء كان مجنوناً حين كتب هذه الرسالة » . قلت : « رب جنون خير من العقل ، ولكن هات حديثك » . قال : أتذكر هذا السخف الذى أغرق فيه إغراقاً حين ذكر هذين البيتين القديمين من شعر النمر بن تولب :

ألم بصحبتى وهم هجوع ... خيال طارق من أم حصن
لها ما تشتهى عسلا مصفى ... إذا شاءت وحوارى بسمن

قلت : « هذا من خير ما فى الرسالة . وأى بأس عليه من أن يفترض أن الشاعر قد وضع مكان حصن فى البيت الأول اسماً آخر كجزء أو حفص أو عمرو ، ثم يلائم بين هذا الاسم وبين القافية فى البيت الثانى ، فهذا نوع من العبث المباح الذى لا يسوء أحداً ، وهو مع ذلك يدرب الذاكرة ويظهر شيئاً من المقدرة اللغوية التى يحرص العلماء والأدباء على إظهارها» . قال : أنت الذى يزعم أن هذا العبث لا يسوء أحداً ، وما رأيك فى أنه قد ساءنى وجشمنى ما رأيت وما لم تر من الأهوال والخطوب . فقد أراد سوء الحظ أن أنظر فى هذا الكتاب ، وأن أقف عند هذا العبث ، فأفكر فى هذه الخيالات التى

كانت تطرق المحبين والشعراء منهم بنوع خاص ، والتى كانت إذا طرقت هؤلاء الشعراء أنطقتهم بما تعرف وما لا تعرف من رائع الشعر وبارع الكلام . وأغرقت فى هذا التفكير وجعلت أستعين بالذاكرة على استحضار شىء من الشعر القديم الذى قاله الشعراء فى الخيال الطارق والطيف الملم . ثم جعلت أسخر من أبى العلاء ومن جفاء طبعه وخشونة مزاجه ، وجعلت أرثى لأم حصن هذه التى عبث الشاعر بها هذا العبث ، فلم يترك اسمها حيث وضعه النمر بن تولب ، وإنما حذفه وأخذ يضع مكانه أسماء أخرى بعدد حروف المعجم ، ولو أنه كان رقيق القلب دقيق الحس ممتاز الشعور رفيقاً بالغانيات لما أزعج أم حصن عن مكانها ، ولما أقلقها عن موضعها ، ولكنه رجل غليظ لا علم له بالحب ، ولا حظ له من الرقة ، ولا معرفة له بحسن معاشرة النساء .

وإنى لفى ذلك وإذا أنا أحس كأن الأرض تدور تحت قدمى ، وكأن كل شىء يضطرب من حولى ، ولا أكاد ألتفت إلى ذلك وأفكر فيه حتى يهدأ من حولى كل شىء ، وإذا شخص جميل قد قام منى غير بعيد وهو ينظر إلىّ نظرة عطف ؛ وعلى وجهه غشاء من كآبة حلوة ، وعلى ثغره ابتسامة كأنها ابتسامة الرضى ، ولكنى لا أعرف شيئاً أصدق منها تصويراً للحزن والأسى ، وتمثيلا للوعة والحسرة ، ولست أدرى كيف لم يرعنى مقام هذا الشخص الجميل ، فلم أظهر

فزعاً ولا اضطراباً ؛ وإنما أنست إليه . وحققت النظر فيه ، فتبينت فتاة غضة الشباب ، رائعة الجمال ، لولا أن شبابها يوشك أن يكون وهماً ، ولولا أن جمالها يوشك أن يكون خيالاً ، تبينت شخصاً حيًّا متحركاً نضيراً ، ولكنه على ذلك لا يخلو من شيء يشبه الموت ، ومن شيء يشبه السكون ، ومن شيء يشبه الذبول . وهو على هذا كله يذكرنى بشخص كنت آلفه ويألفنى ، وكنت أكبره ويكبرنى ، وقد فقدته منذ حين ، فجزعت عليه جزعاً شديداً ، وكثيراً ما سألت نفسى أتراها قد ذكرتنى قبل أن تلج باب الموت .

وإنى لأنظر إلى هذا الشخص الماثل وإن هذه الخواطر لتمر أمام نفسى وادعة كأنها السحاب الرقيق ، وإذا أنا أسمع صوتاً رقيقاً خافتاً حلواً يسعى إلى سعياً خفيًّا من ناحية هذا الشخص الماثل غير بعيد . وإذا هذا الصوت يحمل إلى تحية عذبة هى التى كنت أسمعها من صديقتى حين كنت ألقاها وجه النهار ، وما أكثر ما كنت ألقاها وجه النهار : أصبح بخير يا سيدى ، فأجيب أصبحى بخير يا سيدتى . إنك تعرفنى أو تكاد تعرفنى ، إنك تذكرنى وتسأل نفسك الآن كما كنت تسألها من قبل ، أذكرتك حين فارقت الحياة وودعت الأحياء ؟ نعم يا سيدى قد ذكرتك وألححت فى ذكرك ، وكلفت من يقرأ تحيتى عليك ، ولولا الحياء لكلفت من يدعوك لزيارتى قبل أن أموت ولكنى لم أفعل . ولم يعرض علىّ ذلك أحد من الذين كانوا يحيطون

بسرير الموت ، على أنى لست آسفة فإنى لم أخسر شيئاً ، لأنى لم أفارق أحداً ممن كنت أحب لقاءهم فى تلك الحياة ، إنما أنا أراهم وأسعى بينهم وأتحدث إلى نفوسهم وأسمع منها ، وكل ما فقدته إنما هى هذه الأصوات التى كنت أسمعها ، وهذه الأيدى التى كنت أصافحها . وثق بأنها لا تعدل شيئاً حين أقيسها إلى ما أسمع الآن من أحاديث الضمائر ونجوى النفوس . وما كنت لأتراءى لك الآن لولا أنك أغرقت فى ذكر الخيال واستحضار الخيالات . ولست أخفى عليك أنى كنت أريد حين تراءيت لك أن أداعبك بعض الشىء ، فلا تظن أن الدعابة مقصورة على الأحياء ، فقد يأخذ الموتى من الدعابة بنصيب أيضاً . كنت أريد أن أتراءى لك على أنى أم حصن صاحبة النمر بن تولب ، وأن أشكر لك عطفك علىّ ، ورفقك بى ، ولومك لأبى العلاء . ولكنى لم أستطع أن أخدعك لأنى لم أتعود خداعك أثناء الحياة . ثم لأنى إنما أقبلت إلى هذا المكان لألقى فى روعك رسالة كنت أريد أن تبلغها عنى . وكنت أريد أن ألقيها إليك كما تلقى الرسائل إلى الناس فى الأحلام . ولكنى رأيتك يقظان تنظر فى هذا الكتاب فانتظرت لعل النوم أن يسعى إليك ، ثم رأيتك تذكر الخيال وتستحضر الأطياف فتراءيت لك . وهل أنا إلا خيال أو طيف ؟ لا تطل النظر إلىّ ولا تقل شيئاً فإن نظر الأحياء يؤذينى ، وإن أصوات الأحياء تثقل علىّ ، ولكن اسمع منى ولتتحدث

نفسك إلىّ إذا لم يكن لك بد من حديث ، وإنى لأعلم أنك تريد أن تسألنى كيف أتحدث إليك بصوت يشبه صوت الأحياء ، وأشفق مع ذلك من سماع صوتك . فأنا لا أتحدث إليك بصوت يستطيع غيرك أن يسمعه ، إنما أنت الذى يمنح هذا الصوت قوته وتشخيصه ، ولو أن فى هذه الغرفة قوماً غيرك لما رأوا من شخصى ما ترى ، ولما سمعوا من صوتى ما تسمع ، ولكن أصغ إلىّ فإنى أحس مقدم النهار ، وإنى أكره هذا الضوء الذى يغمر الكون حين تشرق الشمس ، والذى كنت أحبه أشد الحب أثناء الحياة ، والذى لم أحزن على شيء حزنى على فراقه قبل أن أموت ، والذى لم أتسل عن شيء كما تسليت عنه الآن .

أصغ إلى فإنى أريد أن ألقى إليك رسالتى ، وأن أنصرف عنك قبل أن يهجم ضوء النهار فيبدد ظلمة الليل ، وإنى لحريصة على أن ألقاك ، فإن كان لقائى يرضيك الآن كما كان يرضيك من قبل ، فانتهز فرصة كهذه الفرصة ، فى ساعة كهذه الساعة ، وانظر فى الكتاب وأطل التفكير فيه ، فقد أستجيب لدعائك حينئذ . ثم سكت هذا الصوت قليلا ، واستأنف حديثه الحلو المر فقال : ليس السل وحده هو الذى قتلنى ، وإنما قتلنى معه الحب أيضاً ، فقد تذكر أن زوجى فارقنى قبل أن أموت بأشهر ، لأن مرضى المتصل قد ثقل عليه ، وقد تذكر أنى كنت أظهر تجلداً وعزاء ، وقد تعلم أنى كنت

أخفى من ذلك غير ما أضمر ، وأنك كنت تشفق عليّ مما كنت أخفيه . وكنت تود لو استطعت أن تسليني عن بعض ما أجد ، فاعلم الآن أني حين ثقلت عليّ العلة ، وتورمت أطرافي ، ورأى الطبيب أن ينزع ذلك الخاتم الذى كان آخر ما بقى من زوجى ، لم أشك فى أنه سينزع معه الحياة من هذا الجسم المريض ، ولم أكره ذلك ، وأى بأس من مفارقة العلة واليأس . فأبلغ زوجى أنى فارقت الحياة وأنا أحبه ، وأن مقامى فى هذه الأرض بعد الموت لن يطول ، وأنه خليق أن يعلم أنى أراه وأرافقه ، وأنه خليق أن يرعى ذلك وأن يذكرنى فى شيء من الخير والرفق والوفاء ، حتى إذا آن لهذا الخيال أن يصعد فى طبقات الجو ، وأن يمضى إلى ذلك العالم الذى تعيش فيه خيالات الموتى ، وأن تنقطع الصلة بينه وبين هذه الأرض ، فلزوجى أن ينسى ، ولزوجى أن يقطع ما بين نفسه وبينى من الأسباب .

قالت ذلك ثم نظرت إلى نظرة قوية حادة ، لم أستطع أن أثبت لها ، وإنما أطرقت برأسى إلى الأرض خائفاً وجلا . ثم رفعت رأسى بعد ذلك ونظرت فلم أر شيئاً ، وتسمعت فلم ينته إلىّ صوت وإنما هى رسالة الغفران مبسوطة أمامى أرى فيها عبث أبى العلاء حول شعر النمر بن تولب . هنالك أخذنى هلع ما أعرف أنى أحسست مثله من قبل ، وملكنى روع كاد يدفعنى إلى الصياح لولا بقية من عقل ، وفضل من حياء ، ففارقت غرفتى وهبطت إلى الحديقة أهيم فيها

أنتظر مطلع النهار ، حتى إذا ارتفعت الشمس قليلا أوصيت أهلى بما أوصيت وأسرعت إليك . أترى بعد ذلك أن سخف أبى العلاء لم يسؤ أحداً ؟ » . قال ذلك ثم أخذته رعدة غريبة أشفقت أن ترده إلى مثل ما كان عليه من الوجل والاضطراب ، فما زلت به حتى رددت إليه الأمن والهدوء وقلت مداعباً : ويحك ! ألم تقرأ كتاب أناتول فرانس ذلك الذى سماه جريمة سلفستر بونار ؟ إن فيه قصة إن لم تكن تشبه قصتك هذه من كل وجه ، فإنها قريبة منها إلى حد ما ، وما أرى إلا أنك قد ذكرت صاحبتك هذه فى ضوء النهار أو فى ظلمة الليل ، حتى إذا أخذت تنظر كتابك أخذك هذا النوم الخفيف الذى تتراءى فيه الأشباح والخيالات . قال مغضباً : أقسم لك ما كنت نائماً ولا قريباً من النائم ، وإنما كنت يقظان أشد ما يكون الناس يقظة وانتباهاً ، ولكن ما نفع الحديث معك فى هذا وأنت لا تؤمن بعالم الخيال ؟ قلت : فإنى أشفق عليك من إيمانك هذا فقد تستطيع أن تتحول عن دارك ، وأن تفارق القاهرة ، وأن تنزل من الأرض أى منزل شئت ، فسيتراءى لك هذا الخيال كلما خطر له أن يتحدث إليك ، أو أن يحملك رسالة إلى الأحياء . وماذا تريد الآن أن تصنع برسالته هذه ؟ أتحملها إلى من أنت مكلف أن تحملها إليه أم تكتمها ؟ فإن تكن الأولى فماذا تصنع إن لقيك باللوم لأنك تعرض لما لا ينبغى لك أن تدخل فيه ! وإن تكن الثانية فماذا تصنع

إن ألمّ بك الخيال وسألك عن تبليغ الرسالة وتأدية الأمانة والوفاء بالعهد ؟ هنالك نهض صاحبي مغاضباً وهو يقول : ما أشد بغضى للذين يمزحون فى غير أوقات المزاح .

ثم انصرف عنى وأنا شديد الإشفاق عليه وعلى كثير من أمثاله الذين تطرقهم هذه الخيالات فتملأ قلوب بعضهم أمناً ورضى ، وتملأ قلوب بعضهم الآخر خوفاً وروعاً .

طيف

ما كان أعذب هذا الصوت الذى كان يبلغ أذنيها من بعيد ، من بعيد جداًّ ، فيملأ قلبها الثائر المضطرب راحة وأمناً وهدوءاً ، ويملأ نفسها المفجوعة الجزعة طمأنينة ودعة واستقراراً .

وما كان أجمل هذا الطيف الضئيل الذى كان يتراءى لها ثم لا يلبث أن يستخفى ليعود فيتراءى لها مرة أخرى . ولا تكاد تحقق النظر فيه حتّى ترى صورة كانت أحب إليها من كل صورة ، وتتبين شخصاً كان آثر عندها من كل شخص ، وتحس كأنها وجدت شيئاً عزيزاً فقدته منذ حين قريب ، وما كان أغرب هذا الشعور الذى كانت تجده فى أثناء ذلك ، فقد كانت تحس حزناً يشتد على قلبها حتّى يوشك أن يفطره ، ثم تجد نعمة وراحة تردان عنها هذا الحزن ردًّا ثم تجد بشراً يغمر قلبها ونفسها وعقلها ، ويكاد يخرجها عن طورها ، ويبلغ بها شيئاً يشبه الجنون ، ثم تحس كأنها تفيق من سكرات لا عهد لها بها ، وإذا دموع غزار تنهال من عينين لم تتعودا البكاء . وكانت تجاهد لتسترد صوابها الذى شرد عنها ، ورشدها الذى لم يبعد عهدها به ، ولكنها لم تكن تبلغ من ذلك ما تريد ، إنما هو الصوت العذب يأتيها من بعيد ، من بعيد جدًّا ،

فيملأ أذنيها، والطيف الجميل يتراءى لها من بعيد، من بعيد جداً، فيملأ عينيها، وإذا قلبها يضطرب بين الثورة والهدوء، ونفسها تضطرب بين الجزع والبشر، وعقلها يضطرب بين الاستقرار والجنون، وفى الحق أنها لم تعلم أكانت يقظة أم نائمة حين تبدل من حولها كل شىء فجاءة ومن غير تمهيد ولا إعداد، فانجابت تلك الظلمات الكثاف التى كانت تملأ غرفتهـــا، وطردت تلك الوحدة المطلقة التى كانت تحيط بشخصها وغرفتها وبيتها، وتملأ الطبيعة من حولها سكوناً مخيفاً وروعة مثيرة للقلق. وغمر نفسها وغرفتها نور لا سبيل إلى حده ولا الإحاطة به، ثم نظرت فإذا غرفتها نفسها تتبدل، وإذا هى ترى كأنها فى مكان لم تر نفسها فيه من قبل، ولكن يخيل إليها أن لها به عهداً ما، بعيد الأرجاء لا يبلغ الطرف له آخر مهما يدر فى نواحيه، قد قامت فيه ألوان مختلفة أشد الاختلاف من الشجر، ونسقت فيه ضروب متباينة أشد التباين من الزهر، وترقرق فيه نسيم هادئ خفيف كأنما تملؤه الحياة، وجرت فيه غدران دقاق شديدة الصفاء، كثيرة الالتواء، وانطلقت فيه أصوات الطير بغناء جميل يملؤه السحر والبهجة، ويتردد فيه من حين إلى حين حنان حزين.

رأت نفسها فجاءة فى هذا المكان، وأحاط بها فجاءة هذا الجمال الغريب الذى لا يحد ولا يوصف، ولو قد خلى بينها وبين نفسها وعقلها لاجتهدت فى أن تتعرفه وتتبين أمره، وفى أن تبحث وتفكر

لتعرف أين هى ؟ وماذا ترى ؟ وماذا تجد ؟ ولكنها لم تفرغ لنفسها لحظة ، ولا بعض لحظة وإنما كان يشغلها عن نفسها هذا الصوت العذب البعيد الذى كان يملأ أذنيها ، وهذا الطيف الحلو البعيد الذى كان يملأ عينيها ، وهذه الألوان المختلفة من الشعور التى كانت تملك قلبها ونفسها وعقلها حين تسمع الصوت العذب وترى الطيف الجميل .

وكان أشد ما يؤثر فى نفسها مما يحمل الصوت إلى أذنيها هذا اللفظ الذى ظنت أنها لن تسمعه من مصدره منذ انتزع الموت منها فى أشد قسوة وعنف ابنتها العزيزة ، لفظ « أماه ! »

وكان أشد ما يؤثر فى نفسها حين كانت ترى ذلك الطيف ، هذه الابتسامة الحلوة التى عرفتها فى أثناء مرض ابنتها ، والتى كانت تظهر على ذلك الوجه الشاحب الكئيب ، فتصور الحب والبر وتصور الدعابة والتعزية معاً .

كانت المسكينة تظن أنها لن تسمع ذلك الصوت ولن ترى هذه الابتسامة ، فسل عن حزنها العميق ، وعن سرورها الفياض ، حين كانت تسمع وترى ما ظنت أن قد قطعت بينها وبينه الأسباب .

وكان صوت ابنتها يحمل إليها من بعيد ، من بعيد جداً ألفاظاً حلوة فيها تسلية وتعزية ، ويحدثها أحاديث تصور البهجة والدعة والنعيم . وكانت ابتسامات ابنتها تحمل إلى نفسها هذه المعانى التى أشرت إليها آنفاً ، ومعانى أخرى جديدة تدل على أن ابنتها راضية ناعمة

مطمئنة ، وكأنما كانت تسمع وترى من ابنتها ما يلقى فى نفسها أن الفتاة سعيدة مبتهجة لا تريد مهما يكن من شىء أن تخرج من سعادتها وابتهاجها ، وكأنما كانت تقول لأمها لا تحدثينى عن العودة إليكم ولا تطلبيها إلىّ ، فلو قد خيرت لما اخترتها ، ولو قد خلى بينى وبينها لما رغبت فيها ، ولا ملت إليها ، بل لكان انصرافى عنها ونفورى منها أعظم جداً مما تقدرين .

وكان هذا الحديث يلذع قلب الأم المسكينة أشد اللذع ويؤذيه أعظم الإيذاء ، ويثير فيه شيئاً من الغيظ ، فكانت تهم بأن تعاتب ابنتها ، ولكن الفتاة لم تكن تمهلها وإنما كانت ترسل إليها فى صوتها العذب وابتسامها الحلو معانى تصور التعزية والتسلية والتشجيع ، وتصور فوق ذلك الحب والعطف والرثاء . وكأن الفتاة كانت تقول لأمها إنى أرثى لك مما تجدين واو استطعت لمحوت الحزن من قبلك محواً ولرددت إليه حظاً من أمن ونصيباً من دعة ، ولكنى لا أستطيع ، فلا بد للكتاب من أن يبلغ أجله ولا بد لقوانين الحياة والموت من أن تنتهى إلى غايتها ، فقد قضى على الناس أن يموت منهم من يموت ، ويحيا منهم من يحيا ، وأن تكون الذكرى هى الصلة بين أولئك وهؤلاء ، وأن يكون فى الذكرى كثير من الحزن والألم ، وقليل من الراحة والدعة وأن تعمل الأيام عملها على كر النهار ومر الليل ، فيسعى العزاء إلى النفوس شيئاً فشيئاً ، فيقرها ويهدئها ولعله ينتهى بها إلى النسيان .

وكانت الفتاة ترسل إلى أمها فى صوتها العذب وابتسامها الحلو أحاديث أخرى تقول فيها إنى لم أزرك الليلة معزية عن فقدى ، فأنا أعلم أن أوان هذا العزاء لم يأن بعد ، وأنا أعلم أن للحزن أجلاً يجب أن يبلغه ، وأن للموتى على الأحياء حقوقاً يجب أن تؤدى إليهم ، ولكن رأيتك صباح اليوم مولهة مدلهة ، مهدمة محطمة قد فطر الجزع قلبك تفطيراً ، وفرق الهلع نفسك تفريقاً ، فأشفقت عليك ورثيت لك ، وأقبلت أرد على قلبك المكلوم بعض الدعة وعلى نفسك الثائرة بعض الهدوء .

رأيتك صباح اليوم حين أقبلت على قبرى تزورينه فراعك ما رأيت أو راعك ما لم ترى .

وارحمتاه لك أيتها الأم التعسة ! ماذا كنت تظنين أنك سترين ؟ ألم تسمعى أحاديث الموتى ؟ ألم تسمعى أحاديث القبور ؟ ألم تعلمى أن الأجسام بعد أن تفارقها النفوس توارى فى التراب ، فيهون منها ما كان عزيزاً ويهمل منها ما كان مصوناً كريماً . ألم تعلمى أن قبور المصريين تنبث فى الصحراء مهملة شعثاً فى أكثر الأحيان ، لأن أصحاب القبور من الموتى لا يحفلون بقبورهم ولا يعنيهم أن تقوم فى الصحراء الغبراء أو فى الحديقة الغناء إنما هم عن هذا كله فى شغل بما ادخر الله لهم وبما ادخروا هم لأنفسهم من وراء القبور . ولأن نظرة الأحياء إلى القبور ليست أدنى إلى الابتسام والبهجة من نظرة الموتى ،

وإنما هى نظرة حزينة كئيبة تلائم حزن الصحراء وكآبتها . فهم لا يريدون أن يزينوا الموت ولا أن يسبغوا عليه ظلاً من جمال الدنيا . وإنما هم يفهمون الموت فهماً قاسياً كالموت نفسه . ولو أنى عرفت أنك ستسعين لزياراتى حيث تظنين أنى أقيم من هذا القبر المهمل فى الصحراء لخذلتك عن هذه الزيارة تخذيلاً ، فأنا أعلم أن قلبك لا يقوى عليها ولا يستطيع أن ينهض بأثقالها وأثقال ما تثير من الحزن والأسى . ولأنى أعلم ما لا تعلمين ، أعلم أن الموتى لا يزارون فى القبور ، فليس منهم فى القبور إلا أقلهم استحقاقاً للزيارة ، إنما يزارون حيث عاشوا وحيث عملوا وحيث اضطربوا للحياة ومشاغل الحياة . إنما يزارون حيث يذكرون ، إنما يزارون فى نفوس الذين يحبونهم من الأحياء ، فهم يؤثرون أن يتخذوا من نفوس المحبين الأحياء مقاماً . إذا أحببت أن تزورينى أيتها الأم العزيزة الحزينة البائسة فلا تسعى إلى الصحراء ، ولا تقفى عند هذا القبر ولا تظنى أنك ستلقيننى هناك ولكن اذكرينى فسأحضرك كلما ذكرتنى وسترين منى فى الذكرى أكثر ألف مرة ومرة مما ترين عند القبر لأنك لا ترين عند القبر إلا أحجاراً ورمالاً . وأنا أعلم أن حياة الأحياء غرور ، وأن للظواهر فيها تأثيراً عميقاً بعيد المدى ، وأنهم لا يستطيعون أن يفهموا الوفاء لنا إلا أن يزوروا قبورنا ، فافعلى إن لم تستطيعى أن تخلصى من تأثير هذه الظواهر ، ولكن اتخذى مكان قلبك الضعيف الرحيم قلباً جلداً قوياً

صبوراً . فإنك لا تعلمين وما أحب لك أن تعلمى ما وراء هذه الأحجار وما تحت هذه الرمال . صدقينى أيتها الأم العزيزة الحزينة لست أحب لك هذه الزيارة وإنما أحب لك ولنفسى هذه الذكرى الحلوة الهادئة . وإذا لم يكن بد من ساعات تشتد فيها الصلة بينك وبينى وإذا لم يكن بد من أن تحسى كأنى قريبة منك وكأنك قريبة منى فليدعنى قلبك الضعيف الرحيم إذا تقدم الليل شيئاً . فإنا نحن الموتى نستجيب مسرعين لدعوة القلوب الضعيفة الرحيمة ولا سيما قلوب الأمهات .

ليدعنى قلبك إذا تقدم الليل كما دعانى حين تقدمت هذه الليلة . ألم ترى كيف استجبت لدعائه؟ ألا تحسين قربى منك ؟ ألا تجدين امتلاء قلبك ونفسك بى ؟ أنعمت بقربى فى الحياة كما تنعمين به الآن وقد فرّق بيننا الموت ؟ ولكن دعاء آخر يبلغنى أيتها الأم العزيزة ، وإنه دعاء لا تفهمينه ولا تستطيعين أن تعلمى من أين يأتينى ولا كيف يأتينى .

انظرى . إن النجوم تسرع إلى الأفول ويجب أن أسرع معها إلى حيث لا تعلمين ، إن نفوسنا لا تحسن مناجاة الأحياء حين تشرق الأرض بنور الشمس ، فهى تغيب عنها الذكرى فى هذه المناجاة .

إلى اللقاء أيتها الأم العزيزة الحزينة فسأستجيب لك كلما دعانى قلبك ؛ ولكن أيدعونى قلبك كثيراً .

وتنظر الأم الحزينة فإذا الطيف ينأى حتى ينمحى ، وتسمع فإذا الصوت ينأى حتى ينقطع ثم تلتفت فإذا كل شىء من حولها قد عاد كهيئته حين أقبلت على غرفتها وقد تقدم الليل، إلا أن نور الصبح قد دخل الغرفة فأفاض على جدرنها وعلى ما فيها من الأثاث كآبة لا يعلم أجاءت منه أم جاءت من هذه النفس الحزينة التى ترى به ما حولها من الأشياء .

وكذلك أنفقت هذه الأم ليلتها حائرة ، داهلة مضطربة بين ما كانت تسمع وما كانت تفكر . ولعلها لم تر شيئاً ولم تسمع شيئاً ، ولم تفكر إلا فى أنها زارت قبر ابنتها حين ارتفع الضحى من الأمس فرأته كما ينبغى عندنا أن تكون القبور مهملة فى الصحراء . ولم تتعود أن ترى القبور مهملة ، ومن يدرى لعل هذا الطيف الذى رأته لم يكن خيالا ، ولعل هذا الصوت الذى سمعته لم يكن صدى ، ولعل هذه المعانى التى ألقيت فى نفسها لم تصدر عن نفسها ، وإنما ألقيت إليها من عالم آخر ألقاها إليها هذا الصوت الرقيق العذب الذى كان يأتيها من بعيد ، من بعيد جداً وكان يشبه صوت ابنتها .

الفهرس

رقم الإيداع		١٩٩٤ / ٥٤١٤
الترقيم الدولى	977 – 02 – 4578 – X	ISBN

١ / ٩٤ / ٣٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)





كتب أخرى للمؤلف

● في المباحث الإسلامية :
مرآة الإسلام

● في الأدب والنقد :
في الأدب الجاهلي
فصول في الأدب والنقد
حديث الأربعاء (٣ أجزاء)
تجديد ذكرى أبي العلاء
مع المتنبي
مع أبي العلاء في سجنه
من حديث الشعر والنثر
ألوان — جنة الشوك

● في أدب التمثيل :
من الأدب التمثيلي اليوناني

● في القصة والرواية :
الحب الضائع
دعاء الكروان
شجرة البؤس
صوت باريس
المعذبون في الأرض
ما وراء النهر

● في التراجم والسير :
على هامش السيرة (٣ أجزاء)
الوعد الحق — الشيخان
عثمان
علي وبنوه
الأيام (٣ أجزاء)
أديب — قادة الفكر

● في الاجتماع :
نظام الأثينيين

● في التربية :
مستقبل الثقافة في مصر

● في سلسلة اقرأ :
أحلام شهرزاد
الحب الضائع
الوعد الحق
رحلة الربيع
صوت أبي العلاء
المعذبون في الأرض